

شعر الحرب عند العرب

د. نوري حمودي القيسي



منشورات دار الجاحظ للنشر

الجمهورية العراقية

شباط ١٩٨١

الدكتور نوري حمودي القيسي

- ولد في بغداد ١٩٣٢ . تخرج في كلية الآداب بجامعة بغداد ١٩٥٤ ونال رتبة الماجستير والدكتوراه من جامعة القاهرة ١٩٦٤ . ١٩٦٧ .
- حقق ودرس أكثر من ثلاثين دهراناً من الشعر العربي قبل الإسلام وبعده والمصر الأموي والعباسي وأكثر من عشرة كتب منها : الطبيعة في الشعر الجاهلي والسريانية في الشعر الجاهلي ودراسات في الشعر الجاهلي ووحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية ونظرات في النقد والأدب والأدب والالتزام والشعر والتاريخ وشعراء أمويين بثلاثة أجزاء ومنهج تحقيق النصوص
- ونشر له بحث في الموسوعة الصغيرة بعنوان [ملاحق من الشعر القصص في الأدب العربي يحمل الرقم ١٧١]
- استاذ الأدب القديم في كلية الآداب بجامعة بغداد .
- عضو الجمع العلمي العراقي والأمين العام له .

تمهيد

من الصور التي استهوت العرب ، وتركت في نفوسهم الاثر الواضح ، صور الحرب ، وما خلفته من الوان تنائرت فوق مظاهرها المرعبة ، وملامحها المتهبة ، ولم تكن الحرب باشكالها المختلفة وجوانبها المؤلمة محببة الى العربي على الرغم من قوة الحياة وصعوبة البيئة واحتدام الصراع ، لأنه كان يجد فيها جناية كبيرة ومآسي موجمة يتحملها الانسان ، وتتحول في ظلها الحياة الى صور مرعبة واشكال مخيفة ، واذا قدر لهذا الانسان ان يخوض غمارها ويقتحم دروبها فلأنه اضطر اليها ، واجبر على ركوبها بعد ان وجد نفسه يتعرض للتحدي ويقف امام خيارين لا ثالث لهما ، اما الحياة الكريمة او الخضوع لارادة القوى الباغية التي كانت تسمى لاستغلاله والسيطرة عليه واستثمار ثروته وجهوده ، وهذا ما كان يدفعه الى ان يظل متوثبا ومتحفزا ، وحذا ما كان يحمله ايضا على ان يظل محتفظا بسلاحه وكل الاسباب التي تحقق له الانتصار وتدفع عنه شبح السيطرة

تفرض عليهم الوفاء بكل القيم الاجتماعية والتربوية الخيرة من مروءة وتضحية ونجدة وشجاعة وكرم والمثل التي حافظوا عليها من خلال تجربتهم في الحفاظ على العهد والوفاء بالوعد واعانة المحتاج ومساعدة الضعيف والاحسان الى من يحسن اليهم وقد بقيت هذه المعاني تصب في رافد الحماسة الذي تلازمت فيه القيم الخيرة والباديء الانسانية التي وجدت في الشمر طريقها ، وعرفت في معانيه السامية دروبها الرفيعة .

اما الانصاف الذي التزم به الفرسان فكان جانبا اخلاقيا آخر تميزت به الروح العربية ، وتلمت خصائصه في سلوكهم مع اعدائهم ، واعترافهم بقدرتهم على الرغم من كل الاسباب التي تفرض عليهم الظهور بغير هذا المظهر ، ولكن التربية الاصلية والوفاء الانساني والثقة الكبيرة بالنفس كانت تفرض عليهم هذا السلوك الذي ظل علامة من علامات مجدهم وعزتهم ووفائهم .

وشمر الحرب الذي كتب عليه ان يظهر في هذه المرحلة يمثل قدرة (الامة) العظيمة التي كانت صورة للمجد الانساني العظيم ، وقدرة خلاقة من قدرات الابداع الفذ وصوتا مخلصا من اصوات الحقيقة الرائعة التي قدمت وما تزال تقدم لكل

وتبعد عن ارضه نوازع الشر . ومن هنا كان حديثه الشعري عن الحرب ملازما للعناصر الاساسية التي تحسم الحرب لصالحه من خلال وقوفه على وصف هذا السلاح وتبنيته وتمجيده واعتباره بضعة من نفسه وجزءا من حياته وعنصرا هاما من عناصر وجوده ، وان هذا الاهتمام كان يدفعه الى متابعة انواعه وصناعاته ومن عرف بصقله وتقويمه . . وقد شغل هذا الجانب مساحة عريضة من ساحات البيئة الشعرية التي كان يتحرك فوقها الشاعر . والشاعر الذي وضعت القبيلة ثققتها فيه ، وحيات له اسباب الشهرة ، وبواته المكانة المرموقة كان الواجهة الاعلامية المعبرة ، والصوت الشعري الرائد الذي ينطق بالماثر ويحمل لواء الانتصار وهو يشيد بالايام ويذكر الخوادم من المواقف ويؤدي مهمته الشعرية على الوجه الاكمل ، وليضيف الى مجد قومه امجادا جديدة ، ويرفد روافدها الانسانية بمغلاء محمود ، وقد استطاع توظيف شمره لهذه المهمة بجدارة وقدم لديوان الشعر العربي ما اغنى عطاءه ، وترك آثاره البارزة ولم تقف الحرب عند خصائصها القتالية وانما كانت المدرسة التي يتدرب فيها الابناء على ضروب الحياة ويمارسون الخصائص الكريمة التي كانت

شعر العرب عند العرب

القسم الاول

الدفاع عن النفس حق مشروع ، والحرص على الحياة نزوع انساني طبيعي ، والرغبة في امتلاك الحرية والتمكن من ناصية الاحداث لازمة من لوازم الحياة التي ظل الانسان يدافع عنها ويحرص على الاحتفاظ بها ، وييدي كل الاساليب التي تجيز له الوصول اليها . وقد عاش الانسان منذ ان عرف الحياة وادرك سر وجوده فيها ، وتحقق من الكيفية التي يمكن ان تكيفه في مجال واقمها ، يسمى من اجل تلمين تلك الحاجات والوقوف على الاسباب الحقيقية لها لياخذ قسطه منها ، ويوفر لنفسه ما يمكن ان يوفره لها ، وكان لا بد لهذا الانسان من الحصول على بعض ما يمكن ان يحصل عليه من اساليب الاقتدار وادوات التمكن لتكون عاملا من عوامل التسريع في تحقيق الفرض ، والتعجيل في تلبية الطلب ، ويظل تاريخ الامم في مراحلها الاولى سجلا لماضيها الذي تستمد منه قدرتها ، وتستل من مفاخرها ما يفني حياتها

الخيرين عطاءها الثر ومجدها البطولي الكبير ، وسيظل زهو هذه (الامة) ينبوعا ثرا من ينابيع الاقتدار ، وملحمة من ملاحم الخلود الذي يعيش في كل نفس ويحيا مع كل خفقة ويتحرك في اتجاه كل عمل عظيم .

الدكتور نوري حمودي القيسي

السن الدخان ويختلط غبار الوقائع بشحوب
 الاصيل الذي يصطبغ بالدم ، وتنوص اقدام الخيل
 او عجلات الدراعات باكداس القتل وتندحر
 الشمس مشرقة ضاحكة في وجوه الابطال الذين
 يحققون الانتصار وتتوارى غائبة كاسفة في عيون
 المهزمين الذين لا يجدون انفسهم قادرين على
 مواجهة الرجال فتلفهم الوديان الموحشة والشعاب
 المتناثرة والشقوق البائسة . وفي هذه المواقف
 تتالق روائع الانتصار وتزهو بوارق السيوف ،
 وتشتجر مواضي الرماح لتلتقي عند القصيدة
 الخالدة والقصة البطولية الهادفة والملحمة القتالية
 الفذة . ولم يتعد الشعراء وهم يذكرون صولات
 الرجال وقراع النصال وتهاوي السيوف وتلاحم
 القدائف عن خفقات القلوب وهي تتوق للأجبة
 وتزخر بأفانين الحب ، وتذكر الاعزة وهم
 يطالبون بصورهم في كل خفقة ، وملاحمهم عند كل
 بريق ، واصواتهم عند كل اطلاقه تنسل وشائجها
 من فوخة منجنيق او تليفة لهب .. الى جانب
 صور الحنين الاصيل الذي تغنى به المقاتلون الذين
 اهتمدوا عن ارضهم واهلهم واحبانهم فنعروا
 بيوطة الشوق اليهم ، وعندها يصطبغ شعر الحرب
 في هذه المواقف باللمسات الانسانية الحارة وتتلون
 معانيه بركة الاحاسيس التي تنساب في ثنايا المعاني

ويرفد تجربتها ويحقق لها الموقع الذي تنشده في
 حياتها . وتظل الاحداث التي خاضتها تضم روائع
 المشاهد ، وبدائع الصور ، وضروب التضحية
 لبطولات رجالها وابنائها ونسائها الذين استطاعوا
 ان يطعموا ملامحهم باصرار ، ويطرزوا سجلها
 ببراعة ، ويرنموا آيات مجدها بفخر وهم يكتبون
 الصفحات البيض ، ويخلدون العزائم المواضي ،
 ويظل الابناء البررة يجدون في تلك الاعمال اسباب
 الاندفاع لتحقيق الخلود الذي حققه الابهاء والاحفاد ،
 يشمرون بالنشوة ، ويستذكرون البطولات
 باحساس التكريم . ولم يكن الشعراء وهم يرون
 هذه الملاحم بعيدين عن رؤية هذه الوقائع وتصوير
 تلك البطولات وتخليد نماذج التضحية حتى اصبح
 شعرهم سورة لصيحات المجد وسدى للمائر
 الحميدة ، ودبوانا حافلا لما قدمه كل بطل من
 ابطالها وهو يحاول ان يقدم العمل الفذ ، ويكون
 النموذج المتقدم ، ويحقق الهدف الذي يتوق اليه
 الجمهور . وقد استطاع الشعر عند كل الامم ان
 يؤدي هذه المهمة ، ويتابع تلك الاحداث ، ويسجل
 دقائق الوقائع وابعادها القتالية التي كانت تستائر
 بالاهتمام تنتحول الى ملاحم تتعالى فيها اصوات
 السلاح ويزدحم بين سطورها ضجيج الفرسان
 وتهاوي في ظل قوافيها الصروح والقلاع وتتصاعد

هذه الهدمات وهي تطوي جوانح المؤمنين بروعة
امهم ورسالات شعوبهم مدعاة لاستشارة الهم ،
واناشيد عز تموج بها نوازع الشباب ويبقى الابطال
الذين صارعوا قوى البغي وجالدوا جحافل الظلام
زموزا للانتصار ، ونماذج تقتدي بها الشعوب
عندما تحيق بها الكوارث وتنزل بها الاحداث
وتضطر مكرهة لخوض غمار الحروب .

ومن هنا كانت كل الملاحم التي سجلتها
الشعوب صورا لوقائعها او تعاريف بابطالها الذين
تفنت الملاحم بامجادهم وبما تفردوا به من اعمال
وحققوه من انتصارات فكانت ملحمة كلكامش
والاياذة والاولدية والملحمة الجرمانية والمعروفة
باغانى ارض الظلام والتي عرضت لاحداث مفامرات
بطلها (سيجفريد) في ارض (النيبيلونك) واپام
العرب التي بقيت اعلام شخوصها تزور ردهات
التاريخ وتقف على عتبات العصور وتمطي ابناءها
قدرة القتال ، وتغني حياتهم بمعاني البطولة وتمنح
شعوب الارض الشعور بالعمادة عندما تتسامى
رايات النصر ، وتخفق يبارق التضحية ، وتتقدم
الوية الاقتحام للدفاع عن قضية عادلة ، وتحرق
الانسان من الظلم والاضطهاد ، وترفع الحيف عن
الارض التي تطويها مظالم العبودية والقهر .

فتكسو بدفئها طوايا المضامين ، وما رافق حالات
الاغتراب التي افرزتها احداث الحرب من هواجس
وداخليا من تطلمات ننجوا من لواعج الشوق
احاديث يستطاب بها السر وتلد لروايتها الاسماع
وتهفو لاخبارها القلوب وهي في كل احوالها ترسم
الاطار الترفيهي لمجاميع المقاتلين وهم يتحلقون في
الخنادق او يلتقون في ظلال الاسوار ، او يتزاحمون
عند اشتداد القصف في المنحنيات التي تقيهم تطاير
الشنايا واشطار القذائف .

ولم يعلم الشعراء كذلك القدرة الادبية
التميزة التي كانت تعطي كل حركة من حركات
الحرب لونا وكل بعد من ابعادها صوتا يناسب
مع اهمية الحديث وينسجم مع وقع الخبر ولم
تبدو نماذج الشعر وهي تعبر عن الانفعالات
الحقيقية للروح الاصيلة التي تزخر بها قلوب
المقاتلين من مظاهر الفن البلاغي المتميز الذي
يضي على كل لوحة من لوحات الحرب ضربا من
ضروبه البيانية او البديعية فتزهر في عيون المعاني
صور المجد ، وتلمع في ظلال البطولة خوارق
التفحيات لتتحول في اناشيد الانساء الى زهر
متجدد ، وتصاغ في عيون الاطفال احلام مجسد
مستقبلي مشرق واغانى انتصار تبقى روعتها رائقة
في كل حديث ، طرية عند كل استشهاد ، وتظل

موضوعاتها متصلة من حيث تناول أو المعالجة أو النج سيما وان كثيرا منها يمثل الفروسية ويذكر الحروب والايام ويسجل ذكر الابطال والاعمال ويصور الخوالات منها والخوارق من تفحيفاتها والطرائق المستخدمة وضروب المناجزة وفنون القتال واساليب التحدي والهجوم ، وان الاعداد الكبيرة من الابطال الذين ملات اخبارهم الكتب ، وُحيكت حولهم الاقاصيص وتناولت اعمالهم الروايات يمثلون الصفحات البطولية التي بقيت في اذهان الناس على الرغم من كل ضروب المبالغات التي احاطت بها أو زينت اخبارها .

فالتجارب الكثيرة التي خاضها الشعراء الفرسان ، واظهروا فيها قابليات رائعة الهمتهم الدقة في الوصف ، والحس في التصوير والاجادة في التركيب الشعري والقادرة على معايشة الاحداث ، والحرب بكل اشكالها كانت محورا اساسيا من محاور الحياة العربية قبل الاسلام لان العرب كانوا من خلالها يحققون وجودهم ، ويحافظون على مواقعهم عندما كانوا يتعرضون لتهديد الدول المجاورة من الفرس أو الروم أو الاحباش ، والمعروف ان تاريخ هذا التهديد كان يمتد الى القرن الثالث للميلاد حين بدأت مخنة روما بشكل واضح وحين بدأت مطامع الفرس تمد

ومثل ما ظلت شخصيات كلكامش مشار اعجاب السومريين والبابليين وبقية الامم الاخرى فقد تالقت أسماء ابطال آخرين في اداب العالم نسبت اليهم اعمال جليلة فكان [هرقل] و [آخيل] و [الاسكندر ذو القرنين] و [البطل اوديسيوس] وغيرهم ممن حفلت بهم آداب العالم . وفي ادبنا العربي كانت صورة شميربهرعش وسيف ابن ذي يزن وعنترة وعمرو بن معد يكرب وعامر بن الطفيل وقيس بن زهير وغيرهم ممن كتب لهم الخلود في عالم البطولة قبل الاسلام ، تمثل البطولات التي بقيت تشر الى اعتزاز العرب بالدفاع عن المكارم وتسجيل المآثر وتخليد الاعمال التي تستحق ان تبقى موروثا كريما تتناقله الاجيال وتعتبره جزء من حياتها .

وشعر الحرب عند العرب كان صورة متميزة لانه واكب احداثهم وعبر عن امانيهم ومطامعهم المشروعة وهم يتساقون في ميادينها الواسعة ، ويخوضون لحيبها المستعر وان اشعارهم التي احتوتها ايام الحرب وقصائدهم المشهورة واختياراتهم الموقفة تشكل المحممة الكبيرة التي تستحق ان تعاد صياغتها وتوحد اغراضها وتنسق مضامينها ، لان خواطر الشعراء متقاربة وصورهم الفنية متماثلة واحاسيسهم التي كانوا يعالجون

بالفرار وهي تجر اذيال الخيبة والخللان سحبا معهم ذيول الصراع الى المراق ليجدوا في هذا القطر العربي مجالا جديدا يمدون منه سلطانهم الى الجزيرة العربية .

ان جو الاطماع المستمر الذي احاط بالمنطقة ظل شحا مخيفا بانسبة لشعوب هذه المنطقة بعد ان بدأت اشكال هذا الصراع تتسارع للاستحواذ والسيطرة وبعد ان وجد كل طرف منها ان مصلحته تتحقق في حالة السيطرة او النفوذ ، وان هذا الوضع قد هيا امة العرب الى ان تظل حلدة يقظة تقدم من ابناؤها وتودا للحرب التي تثيرها مطامع هاتين الدولتين وتبدل في سبيل الحرص على وجودها ما يمكن ان تبدله لتظل امينة على حياتها ، وقد حقق لها هذا الاستمرار في التضحية والدفاع من اجل الارض حياة تنعم في ظلها بالمر ومستقبلا تفخر به في مواطن الفخر كما ترك لهم ترانا وفيرا من المحامد والمآثر التي تمثل الخزين الحقيقي لعوامل الاندفاع والمثل العظيمة التي يستلون منها نماذج التضحيات . ومن الطبيعي ان ينشأ العربي الذي ظلت حياته تزخر بهذه الامجاد، وحياته تحفل بهذه المواقف وقد توحدت امامه صور الحياة الكريمة ، وتالقت في نفسه لوحات الشرف الناصعة التي لم تترك مجالا للتنازل عنها

راسها من خلال ذراع الدولة الساسانية بعد ان تويت شوكتها وتصلب عودها وببعد ان تحرك مؤسساها (اردشير) الى مناهضة روما ليفتح ابواب الصراع الدولي امام القوتين الكبيرتين بدا حكامهما يتلاعبان بمصير الشعوب ، وقد ازدادت مطامع الفرس بعد ان استطاعوا سحب ارمينيا من دائرة النفوذ الروماني واخضاعها الى سيطرتهم متغللين الاوضاع السيئة التي كانت تسود روما ، والصراعات الداخلية التي تأخذ بخناق الامبراطورية التي كانت تعيش وضعا لا تحسد عليه .

لقد مهدت هذه السيطرة للفرس التوجه الى الارض العربية في سوريا ليتخذوا منها ميدانا جديدا للصراع في الشرق العربي بعد ان وجدوا انفسهم قادرين على مثل هذا التوجه محققين بذلك مجموعة من الاهداف العسكرية والتجارية والسياسية وببعد ان تصبح المنافذ الساحلية الشرفة على الجانب الشرقي للبحر الابيض المتوسط تحت نفوذهم ، ولكن احلامهم هذه قد تبددت بعد ان ردوا على اعتابهم وجوبها بمقاومة عنيفة من قبل (اذينة) حاكم تدمر وبهذا استطاعت سوريا ومصر ان تتخلص من الغزو الفارسي المقيت الذي كان يضمر لهما الشر وعندما لاذت جحافل الفرس

وما هي السمات التي يمكن أن تطبع على الحيائين،
وما هي المائر التي يمكن أن يخلقها كل من هذين
الإنسانين اللذين نزلا إلى الحياة فاكسبا تجربتها
وقنما بواقعا ولكنهما اختلفا في تقدير النتائج
المرتبة على النهاية التي انتبيا إليها ، وكان عروة
ابن الورد واضحا في تصوير هذه الفلسفة حينما
قال :

دعيني اطوف في البلاد لعني
أفيد غنى فيه لدي الحق محمل
ليس عظيمًا ان تلم ملامة
وليس علينا في الحقوق موعون
فإن نحن لم نملك دفاعا بحادث
تلم به الأيام فالموت أجمل
وفي حديث آخر يقول :

أرى أم حسان الغداة تلومني
تخوفني الأعداء والنفس أخوف
تقول سلمي لو اقمت لبرنا
ولم تدر أنني للمقام اطوف
لعل الذي خوفتنا من أماننا
يصادفه في أهله ، المتخلف

أو الميل عن خطيها الإنساني الذي يؤمن بكل القيم
الخيرة التي تربي عليها ونشا في ظلها وعبر في كل
أساليب حياته عن الدفاع عنها . ولا بد أن يدفعه
هذا التصور إلى استرخاها الحياة دفاعا عن
الشرف واستهال الموت ذودا عن الكرامة لأنه
يؤمن بان الأقدام في الحرب لا يتقص عمر المتقدمين،
وان الإحجام عنها لا يبريد عمر المتأخرين وبأن الذي
يطلب الموت توهب له الحياة وأن الميتة الحققة هي
التي تكون في خضم المعركة لينال البطل بعدها
شرف المعالي ، ويكسب فخرا يضيفه إبنائه إلى
مفاخرهم ، ويظل ذكره نشيدا تترنم به الأجيال
من بعده وكان فلسفة الحياة عند العرب قد
تحولت إلى عالم التضحية التي وجدوا فيها كل
مباهج الدنيا ومتع السعادة لأنهم كانوا يؤمنون
أضًا بان الإنسان قادر على ان يجعل حياته زاخرة
بكل الاطياب ، يلبو كما يلبو الآخرون ويقبل بما
يقبل به القانعون ، ويقف من أحداث الحياة (كما
يقف البعض) وكان الأحداث لا تمس أطراف
ثيابهم أو تنوش شفاف حسم . هذه النفس
لا يمكن ان تخلد الا اذا كانت قادرة على البذل ، والا
ضويت مثل ملايين النفوس التي عاشت وماتت ولم
تترك لها ذكرا يحمده ، وكانها لم تكن ، وكان الدنيا
لم تجد لها ظلًا فيها ، فما الفرق إذن بين النفسين

ذريني اطوف في البلاد لعلني
اخليك او افيك عن سوء محضري

فان فاز سهم للمنية لم اكن
جزوعا وهل عن ذاك من متأخر

ويقول في قصيدة اخرى :

وان النايان نغمر كل نية
فهل ذاك عما يتفنى القوم محصر

وغيراء مخشي وداها مخوفة
اخوها باسباب النايان مفرز

قطعت بها شك الخلاج ولم اقل
لخيابة هيابة كيف تامر

ولعل هذا النمط اصبح الشراء ينهجونه
منلكا من مسالكهم ، ومذهبا من مذاهبهم يبشرون
به وينشرون فضائله حتى قال عروة مرة اخرى :

عجبت لهم إذ يخشون نفوسهم

ومقتلهم تحت الوغى كان اعذرا

ومن هذه المواقع كان الشعر العربي في بعض
جوانبه صورة من صور الحرب التي تقف فيه عند
المواقف الشجاعة وتشيد من خلاله باسباب البسالة

فالنفس الكبيرة هي النفس التي تخدم
الآخرين وتستجيب لنوازع الخير ، وتدرك ان
الخلود في تضحيتها ، وان الموت في كونها نفسا
لا تتجاوز النفوس الاخرى ، وبذلك تسقط في
مدرج النسيان ، وتهوي في مهاوي العدم ،
وتتحرر الى الاماكن التي لا تذكر فيها .

ومن هذا التفكير كانت تنطلق كل الاعتبارات،
وتتحدد معظم الاتجاهات وهذا ما كان يجعل
نفوسهم كبيرة لا يعرفون من الدنيا الا خلودها ،
ومن الحياة الا عزها واباءها فعاشوا اعزة في
اوطانهم بعد ان اخلدوا مواقعهم في عالم التضحية
والجراة ، وقد اهلتهم هذه الصفات الى ان يعطوا
لكل بعد من ابعاد الشجاعة ما يجعله اكثر قدرة
على التعبير لابرار هذا البعد او ذاك منتفعين من
الاشارات المثيرة التي وجدوا الاعجاب بها ياخذ
شكلا متميزا حتى اصبحت هذه الخصال جزء من
حياتهم فتلونت بانماط الجراة واصبحت اتجاهاتهم
تمثل التضحية والاقدام والدفاع عن كل القيم
النبلية التي التزموا بالدفاع عنها ، وترسخ في
ذهنهم بان الموت على الهيئة التي صوروها او
تخليوها او ارادوها لا يمكن ان تكون محمودة الا
!ذا كانت تضحية جريئة وقد عبر عنها عروة بن
الورد حين قال :

فهجاء الخصوم ونشر صفاتهم التي تخرجهم عن دائرة المدح وذكر جبنهم وفرارهم وعدم تحليهم بالخصال الحميدة وعدم التزامهم بأطعام الجائع أو تخليهم عن اعانة المحتاج أو العاني ، أو تنازلهم عن إيفائهم بحقوق الجيرة كلها يمكن أن تدخل في باب الحماسة وعندها تصبح قصائد الشعر قنوات إذاعية مفتوحة تجوب أطراف الجزيرة وهي تتحدث بالصفات مرذولة أو محمودة ، وبالرجال الذين يضيفون إلى مجد قبائلهم مجدا جديدا ، أو يفقدونها من الآثار ما يجعلها غير قادرة على أن تقف مع القبائل الأخرى إذا ذكرت المناقب أو تحدث عن المحامد .. وهذا ما كان يشير إليه المسيب بن علس في قوله :

فلاهديين مع الرياح قصيدة

منى متغلغلة إلى التعقاع

ترد المياه فما تزال غريبة

في القوم بين تمثيل وسماع

فالشعر كان أسلوب التعبير عن الحرب والشاعر يمثل القدرة التي تصوغ الأسلوب وتعبير عنه وتضفي عليه من الوجدان ما يترك له قدرة التحرك واستغاثة السماع وتبول التدوق وبهذا

والاندام أو تشتير العزائم أو تمجد الرجال الذين يلبون فيها البلاء الحسن إلى جانب الموضوعات الأخرى التي يروى فيها الشعراء الرجال الذين يقدمون النفوس رخيصة وهنا يستقل شعر الرثاء بجوانب كثيرة يمكن حصرها في باب الحماسة لأن الرثاء فيها يتصل بعد أن يعرض الشعراء للمآثر المحمودة ويتفرد بنذب الإبطال في حومات القتال والشعراء في هذا الباب يميلون إلى تعداد المناقب والإشارة التي احتفظ بها المرثي وهم لا يغفلون الدعوة إلى الانتداء به والحرص على السير في الطريق الذي مات من أجله بعد أن تختلط صور الإعجاب بعبارة التمجيد ، وتتداخل معاني الخلود بمضامين الفخر لتنتهي إلى النهاية التي يصير إليها كل الناس وفي ذلك يقول لبيد :

انزع ما أحدث الدهر بالفتى

وأي كريم لم تصبه القوارع

ومثل ما كانت ابواب الرثاء تندفع لتعجب

جزء من شعر الحرب فإن شعر الهجاء والمدح

والفخر والنزل كلها يمكن أن تدخل هذه الابواب

عندما تتعرض لأوصاف الرجال ومواقفهم ،

وللحديث عن كل خصلة من خصالهم التي تمجد

عملا أو تذكرا عيبا أو تقف عند مائتة أو مكرومة .

الشعرية بشتى نواحيها ومختلف اتجاهاتها ، فكانت حافزا قويا ، ومصدرا خصبا من مصادر الالهام ، اثارت في نفوس الشعراء مختلف الاحاسيس والعواطف ، فانابت على السنتهم اغاني عذبة ، واناشيد رائعة ، وفي غمرة اصطلانهم بتران الحروب وغشيانهم مسمعات الوغى ، تتفجر نفوسهم شعرا حماسيا بليفا ، فتتجاوب مع اصداؤه الحان الفخر ، وملاحم النصر . وتنشال المعاني على السن الشعراء انشالا يدفعمهم الى قول الشعر بعد ان توسعت آفاق النظم امامهم ، وخلقت لهم الميادين الرحبة للتعبير فاناحوا يشيدون بمفاخرهم ويتفتنون بانتصارهم .

لقد كان شعر الحرب اقوى ما نظم الشعراء وانتقاد ، لانه يتصل بالامة فيضم مجد ماضيها الى عزة حاضرها ، وهو وحده سجل فخرها وعنوان ياسها ، ونشيد بطولتها ، لانه صور باس الابطال في ساعات اللقاء الحاسمة ، ورسد اللحظات الدقيقة التي عاشتها النفوس وهي تمتحن في اعز ما تملك وتمثل على شفاه الفرسان في زحمات التلاحم فكان صوتا من اصوات الهمم ، ولونا من الوان المنازلة الشديدة التي ملات اوصانها اغلب معاني اللغة فكان الفخر بالبطولة والفروسية ،

يصبح الشاعر لسان القوم يحمل امانة التعبير وينعد وسيلة الدفاع وينشد صوتها الاعلامي ويذكر مفاخرها التي تعبر كل الحدود ولا تحول دون انتقالها الحواجز ومن هنا كانت القبائل تمتاز بالشعر لانه سجلها الحافل ، وتاريخها البطولي وهويتها القومية واثرها الخالد الذي يبرز مآثرها وسلاحها الذي يرد عنها طعون الاعداء ويقوي في نفوس ابنائها العزائم .

ومن هنا ايضا كانت القبائل تضع الشاعر في مواضع متقدمة لانه يحمي عرضها ويلدب عن احاسيها ، ويخلد مآثرها ، ويشيد بلكرها وقد تجلت هذه الاهمية في فصول بعض الكتب التي افردت ابوابا لفضل الشعر والرد على من يكرهه واحتفاء القبائل بشعرائها وتقلهم بين القبائل . وقد دفع هذا الاهتمام الناس الى الاحتفاء بالشاعر فكانت القبيلة اذا نبغ فيها شاعر ات القبائل فبناتها وصفت الاطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالزاهر ، كما يصفون في الاعراس ، ويتباشرون الرجال والولدان ، وكانوا لا يهتنون الا بفلام يولد ، او شاعر يتبغ او فرس تنتج .

لقد امتدت الحروب الشعراء بمعين ترم ، وهيات لهم المجالات الواسعة للانطلاق بمواهبهم

القسم الثاني

ان متابعة شكل المجتمع العربي قبل الاسلام يتحدد في مظهرين اساسيين هما المظهر الجماعي المتمثل باجتماع القبيلة واتفاقها على الصيغة المقبولة في التعامل والخضوع لما تفرضه ضوابطها وتؤكدده نوازعها وتلتقى عنده مصالح ابنائها ؛ والمظهر الفردي الذي يحقق لهذا المظهر قدرة التميز ولكنه لا يعتمد في مضامينه عن المظهر الاول ؛ واما متحد فيه صورة الفرد بصورة الجماعة ؛ وتوحد قدرته في اطار الكل الذي يحتوي هذه النزعة ؛ بعد ان يصبح مسؤولا عنها في كل حركة ، وداخلا فيها عند كل مسالة ، ولعل بيت دريد بن الصمة يكشف عن هذه الدائرة الكبيرة التي يتحرك فيها الانسان العربي على الرغم من كل اشكال السلوك الفردي الذي كان يمارسه :

وهل انا الا من غزيرة إن غوت

غويت وإن ترشد غزية ارشد

فالارتباط القبلي الذي يشكل الحلقة الاولى في نظام القوم والاحساس بالانتماء كان مظهرا متميزا من مظاهر الحياة ، وصورة من صور

وقديم الايام من مظاهر شعرهم الحربي وكانت القصائد التي تمدح بلكر الشجاعة في القتال والبطولة في المارك من ابرز اغراض الشعر العربي قبل الاسلام ، وكانت لابواب الحماسة المكانة الاولى في منتخباتهم لان العرب بها احنى ؛ ولها اروع ، ولان شجاعة العرب ومآثرهم الحماسية المع سجايهم واعرق ما فيهم من الصفات .

وحملته على أن يمارس كل الأساليب التي تجعله قائما بما يؤكد في نفسه من أسباب هذه القوة لانه كان يدرك أن الضعف في حد ذاته فناء ، وأن الهزيمة التي تكتب عليه في كل معركة تعني خضوعه لكل عوامل الاستخذاء ، وارتماؤه في مهاوي اللذات ، وقبوله بكل ما تفرضه عليه ارادة المنتصر مهما كانت هويته وقد دفعه هذا الشعور الى ان يظل دائما في حالة توتب ، وان تظل اسلحته مهيأة ، قادرة على الرد الحاسم ، وان تبقى عناصر وجوده وصلات ارتباطه بمن يشعر بوجودهم القوة الحصينة ، وعلى قدر من الاستعداد . وقد حفلت صور الشعر بهذه المظاهر التي عبر من خلالها الشعراء عن الاندفاع وراء النصر ، والتفاني من اجل تحقيقه والدفاع عن وجوده والاحتفاظ بصلاته والاحلاف التي يربط بها ، وما يترتب على هذه الصلات من تقاليد لتبقى محتفظة بكل مقوماتها ، ولتظل عناصر شداها قائمة .

ان هذه المعاني التي حرص على الالتزام بها هذا الانسان كانت ممثلة في ابواب الشعر واتجاهات الشعراء ، ودلالات المعاني التي وقفت عند كل معنى فكانت ابواب الحماسة موزعة بين الانفة والامتناع عن الضيم وركوب الموت خشية العار ، والتشمير عند الحرب ، وذم الفرار

التعامل ، وانتماء له جذوره في تكوين الفرد وسلوكه وتصرفه وتحديد علاقته بالآخرين ، ولا بد لهذين المظهرين من ان يأخذا مساحتهما في كل صراع او قتال او التحام لانهما يشكلان العناصر الفاعلة في تجسيد الحالة الجديدة التي تفرزها طبيعة القتال بعد ان تجسد القوة طريقا الى تحديد النتائج والانشداد الى الجماعة والدخول في دائرة المسؤولية عاملا حاسما من عوامل تحديد الموقف الذي يمكن ان يحدده لنفسه هذا الانسان ووسط هذا المجتمع الذي امتزجت كثير من عناصره بمظاهر انفة ، وتحددت أسباب وجوده بوسائل استمرارها ، وان الاعمال التي يقدمها هذا الانسان في كل جانب من جوانبها تتعاضد صورتها في حدود الدائرة التي حددتها كل عناصر هذا المجتمع بعد ان حققتها أسباب سلامة التمكن ، وميزتها اسبقية الموضوع ، وساهمت في اخراجها قدرة الاختيار المناسب ، وجرأة الاقدام المتحقق وبعد ان احيطت اطرافها بما اعاد اليها وجهها الانساني ، والنزعة الجماعية المتوافقة مع القدرة الجديدة والتوقد الذهني والممارسة الحية التي تترك لكل قبيلة في اطار تحركها القومي لون الشهرة وضرب انتزاع دواعي الاعجاب .

لقد عودت الحياة الانسان على ان يكون قويا،

اعداءهم بكتائب تضرب الهامات ، وبهوي فيها
الفرستنان باسلحتهم على الخصوم كالجزاة
الكواسر ...

امن آل شعناء الحمول' البواكر'
مع الصبح ام زالت - قبيل' - الأباغر'

وحللت سليمى في هضاب' واىكتر'
فليس عليها يسوم ذلك قادر'

فالقت عصاها واستقرت بها النوى
كما قرء عيناً بالاياب' المسافر'

الى ان يقول :

وقد رجعت دودان تبني لثاها
وجاشت تميم كالفحول تخاطير'

وقد جمعوا جمعا كان زهاءه
جراد' هفا في هفوة' متطير'

فعمرو باطناب البيوت فردهم
رجال' باطراف الرياح مساعير'

كان نعام' الدور' باض عليهم
واعينهم' تحت الحبيك خوازير'

والتعبير به واستطابة الموت دفاعا عن الشرف ،
وذودا عن الارض وتضحية من اجل مثل كريمة
وقيم خيرة وغيرها من الابواب التي مجدت الموت
وعززت اسباب الحياة الكريمة ، واستهانت بكل
تضحية جريئة وصولا الى الهدف السامي والمقام
الرفيع وقد ترك لنا كل يوم من ايامها مادة كبيرة
وقصائد مشيرة اذا ضمت الى اليفاتها من القصائد
شكلت ملحمة متميزة (فيوم الردهة) كان يوما
مشهودا ذاتت فيه قيس القهر والويل ومثله « يوم
النقراوات » و (الررحان) و (جبلة) وهي ايام
شهدت حروبا طويلة ، واياما عصيبة تناولها
الشعراء من كل جوانبها وقد انصب جل فخرهم
وحماستهم على مدح قبائلهم والاشادة برجالاتها
وانتصاراتها الى جانب الفاخر التي كانوا يتغنسون
بها حين يقفون على وقائعهم ولقاءاتهم في كل جانب
من هذه الجوانب تتجلى صورة ، وتائق مكرمة ،
وتبرز ماثرة يتخذ الشاعر منها جبرا لينتقل الى
مدح قومه والاعتزاز بهم وهم يقفون لاعدائهم الموقف
الحاسم ويرتفع صوت الشاعر المعتر البارقي وهو
يشهد بعض هذه الوقائع فيصف ايامها المشهودة ،
ويذكر من كان فيها من الرجال وكيف كانوا لا
يأبهون للأمر وقد اعدوا للحرب عدتها ، فكانوا
يطربون بالنصر الذي سيكون لهم وهم يصبحون

ابن ابي سلمى والنايفة اللبياني والربيع بن ضبيح
 وشبيب بن خويلد الفزاري وغيرهم ممن اقتحموا
 الحرب باشعارهم وسيوفهم وسخروا شعرهم
 لمسلحتها ولانجاح امر قبائلهم بعد ان يمهّدوا للحرب
 بوسائلهم النفسية من محاولات لتثبيط العزائم
 واسقاط الهم واستلاب الثقة بالنفس ونزع
 القدرة على القتال وتجريد الخصوم من دواعي
 الفخر بعد ان ينفذوا الى مواضع الضعف ، ومواطن
 الخلل وفي الجانب المقابل يحاولون تذكير اقوامهم
 بالامجاد التي سجلها الاباء والاحفاد ويضعون امامهم
 الصور الكبيرة التي سجلت ، والاعمال الخالدة التي
 حققت والتضحيات النادرة التي قدمها المقاتلون
 وهم يدافعون عن شرف القوم وسيادة الانشاء
 وكرامة العيش . وفي كل معنى من هذه المعاني
 تتزاحم نماذج الفخر ، وتتقارب خصائص الاعتزاز ،
 وتنتشر قدرات الابطال ، بعد ان يمهّد لها بما
 يجعلها موافقة لظروف المعركة ، ولم تقتصر مهمة
 الشعراء على هذه القصائد التي تتولى هذه المهام
 وانما تمتد لتأخذ جانب الانشاد اذا احتدم اللقاء
 والارتجاج اذا حمي الوطيس وتعالى الشرر
 واشتدت وطأة الاجتلاء ..

وتأخذ حرب البسوس لونا آخر من لون
 الصراع ويتأقح الشعراء لخوض ايامها مخلفين

من الضارين الهام يمشون مقدا
 اذا غصّ بالريق اللثا والحناجر'
 شربنا جميل البيض في غمر لجة
 فلم ينج في الناجين منهم مفاخر

وكما خلدها المقر البارقي في قصيدته هذه
 فقد شاركت دختوس ابنة لقيط بن زرارة في هذه
 الحرب وكان لصواب رايتها ، وحسن تفكيرها الرؤ
 الواضح بعد ان اخذت هذه الحرب مجرى يختلف
 عن المجري الذي ارادته ولكن سداد هذا الراي بعد
 ان دارت على قومها الدوائر ، قد وضح وبيانت
 حكمته واتضحت وجاهته ، ولم تكن دختوس
 وحدها من نساء العرب من وقفت هذا الموقف
 للمرأة في شعر الحرب مواقف مشهودة ، ولها من
 الموثبات ما هزت به الشاعر ، واثارت الكوامن ،
 ورفعت فيه درجة الحماسة ، ودفعت المقاتلين الى
 ان يخوضوا غمار الحروب ، ويقلموا ضرور
 البسالة ، ويضربوا اروع نماذج التضحية والفداء .

ومثل ما كانت هذه الحرب ماثرا لقرائح
 الشعراء ومدعاة لانطلاق السنتهم فقد كانت حرب
 داحس والفبراء ملحمة اخرى وقف فيها الشعراء
 امثال عنتره وقيس بن زهير والربيع بن زياد وزهير

العربي كان يحس بما يكابده الانسان من احوال الحرب . وانه لم يكن متدفعاً من اجلها ولكنه كان مضطراً الى خوضها ومجبوراً على الدخول فيها وهو يدرك بطبيعته الانسانية ويلاتها ، ويقدر نظامها وما تجره من احوال . وفي ابيات قيس بن الخطيم اشارة واضحة الى هذه الحالة عندما يقول :

دعوتُ بني عوف لحقن دماهم
فلما ابوا سامحتُ في حرب حاطب
وكنت امرأ لا ابعث الحرب ظالماً
فلما ابوا اشعلتها كل جانب
أريت بدفع الحرب حتى رايتها
على الدفع لا تزداد غير تقارب
فإذ لم يكن عن غاية الموت مدفع
ناهلاً بها إذ لم تنزل في المراحب
فلما رايت الحرب حرباً تجردت
لبست مع البرادين ثوب المحارب
وكان الحارث بن عباد قد تجنب حرب بكر

الابطال الذين شاركوا في احداثها ووقفوا على اخبارها بعد ان عاصروا وتانمها واظهروا من البسالة والاقتدار ما خلد مواقيهم وعزز مكانتهم فكان كليب بن ربيعة وجساس بن سُرة والحارث ابن عباد وغيرهم ممن اعطى هذه الحرب حقها ، وامدما باحاسيس شعرية صادقة فكان الشعر صورة لاحداثها المختلفة حتى اصبح وثيقة بيد الرواة يدللون بها على صحة الاخبار وسلامة الاحداث وان الشعر العربي ظل قادراً على مواكبة الحرب في كثير من جوانبها منذ بداية كل معركة وحتى انتهائها ومن الطبيعي ان تشتد صورة الشعر وتشتد قوته عندما يتقد أوار الحرب ويتزايد الصراع الذي يحتاج الى الوقود الجزل واللبب المستعر والصورة الحادة والكلمة المؤثرة . وان هذا الشعر كان يتفاوت من حيث كثرته وقلته من واقعة الى اخرى وبسبب اختلاف النوازع والدوافع وان المواضع التي تثير هم الشعراء وتوحى لهم بالاندفاع والاثارة تأخذ النصب الاوفر لانها تمثل نقاط التكثيف في المجال الشعري ، واللقطة اللتية في استشارة الحماس وان هذا الشعر الذي كان يحمل معاني التاجيع لم يعدم الجوانب الانسانية التي تخفف من غلواء العواطف وتوجه بها الى الوجهة التي تدعو الى ايقانها لان

الصلح بين المتنازعين ، ويباركون كل مبادرة توقف
نزيف الدم ، وتقطع دابر الدين لا ترعبهم احوالها ،
ولا تهتمهم النتائج التي تنتهي اليها ، وفي ذلك
يدلل العرب على انسانيتهم وشموخهم بالمسؤولية
ولكنهم يقدمون عليها عندما لا يجدون مقرا منها ،
ولا خلاصا من شرها ، ولا مهربا من اذائها ، وعند
ذلك يقتحمونها اقتحام الابطال ويخوضونها خوض
الفرسان وقد صور الفند الزماني هذه الرؤية
الواضحة التي كانت تتجدد في النفوس فقال :

فلما صرّح الشرّ

فامسى وهو عريان

ولم يبق سوى المدوا

ن دناهم كما دائوا

وبعض الحلم عند الجهل

للذلة إذعان

وفي الشرّ نجاة

حين لا يتجيك إحان

فالناس كانوا يميلون الى السلم ، ويؤثرون
الغفران مع قدرتهم على تحقيق ما يريدون ، وتمكنهم
من الوصول الى الغايات المرجوة . وقد ظلت هذه

وتطلب ، لانه يعتقد بان الحرب جناية حتى قتل
التغلبون نشارت حميته فقال :

يا بُجيرَ الخيرات لا صلحَ حتى

نملا اليدَ من رؤوس الرجال

وتقرّ العيون بمدّ بكاهها

حين تسقي الدما صدور العوالي

اصبحت وائل تميج من الحر

ب عجيج الجمال بالانقال

لم اكن من جناتها علم الله

(م) واني بحرّها اليوم صال

قد تجنيت وائل كي يفتقوا

فابنت تغلب عليّ اعتزالي

واشابوا ذؤابتي بيجم

قتلوه ظلما بغير قتال

وقد وصف العرب الحرب بابشع الارصاف
فهى شرّة المداق غشوم ، وكثيرا ما كانوا يلعنون
من يتسبب فيها ويحقدون على كل الرؤوس التي
تشر آسائها او توجع نارها او تعمل على استمرارها
وهم يكبرون في كثير من الاحيان من يفتن الي

الاشياء واجزاء التطورات التاريخية ، لما انطوى عليه من ضروب حياتهم والاحداث المتباينة التي تضافرت لخلق القدرة الشعرية والحس الانساني، لان الشعر كان نتاجا اصيلا من نتاجات قرائحهم وعواطفهم وكانوا يفخرون وهم يسجلون لقدراتهم القتالية اروع صفحات الاعجاب ، واسمى آيات النجاح في المضامين الادبية التي تزخر بالحياة النابضة بمعاني التضحية ، كما انهم كانوا يشعرون بالانتشاء والزهو وهم يوظفون شعرهم لمتطلبات المعركة ، وحاجات القتال ، واساليب الانتصار ، كما ان هذا الزهو يتحول الى اعجاب مستبدم يفجر في دواخلهم طاقات الشعور الواعية التي تجد في كل تحرك ميدانا من ميادين التفوق ، وايمامة من ايمانات الاندفاع والاتحام ، والشعراء بعد هذا كانوا يجدون المتعة النفسية الخالصة وهم يسترخصون النفوس دفاعا عن الروابط الصادقة التي تشد ابناء القبيلة الواحدة، وكثيرا ما كانت القصائد الطوال تشق طريقها الى القلوب ، وتناقطها الالسن لتعبر عن الغداء الغالي من اجل كلمة تمس قيمة من قيمه او تثلب نسيبا من انابه او ذودا عن ارض يطمع في احتلالها غريب او يحاول تدنيسها مفتصب ، او اكراما لشرف يستباح او عرض يهان او امرأة تسبى وفي

الماني في قصائدهم ، وتأخذ مجالها في حياتهم وهذا ما اشار اليه احد شعراء بلعبر :

لكن قومي وان كانوا ذوي عددٍ

ليوا من الشرِّ في شيء وإن هانا

يجزون من ظلم اهل الظلم مغفرة

ومن اساءة اهل سوء احسانا

ان القيم النبيلة التي سادت حياتهم، والروح السمحة التي صبغت وجودهم كانت تعيش في سلوكهم وتحيا في علاقتهم وتتردد في وجودهم ، وفي هذه الخصال الكريمة كانت تزدهر معاني الوفاء ، وتزهو دلالات سمو والرفعة حتى اصبحت هذه الخصائص رمزا لكل نموذج من نماذجهم ، ودلالة من ادلة انسانيتهم الحققة .

لقد اكتسب الشعراء العرب وهم يشاركون ابناء قومهم احوالها ولحظاتها الوصف الدقيق والتصوير الحسن والواقعية في التعبير والمطابقة في الحديث عن الجانبين التاريخي والادبي وقد استطاع هذا الشعر ان ينجز المهمة التي حددها له عصره ، واوكلتها اليه احداثه ، وحققتها لصوره وقائعه ومسؤولياته فجاء صورة واضحة للباحثين، وعطاء ثرا وصادقا لمن اراد ان يقف على دقائق

عريضة في كل موضع من مواضع التفاخر ، وبقيت أصوات تأثيره تمتد الى كل نفس ، فهو صوت الجماعة الذي يعبر عن فكرتها وقدرتها ، وهو نموذج من نماذج مظهرها الحياتي الذي ارتفع فيه مفهوم الدفاع عن كل ما يعود الى القبيلة ، وقد استطاع البطل العربي الذي استوعب حاجات عصره أن يوفق بين هذين الجانبين وير في الاتجاه الذي يحقق له هذه القدرة بعد أن أدرك النزوع الذي يمتلك اعجاب أبناء القبيلة وهم يطمحون الى المكانة المرموقة التي تجعلهم في موضع يحقق لهم السؤدد المنتظر . والكلمة المسموعة والمكانة الرفيعة والمفخرة التي يتحدث عنها الجميع . وقد استطاع هذا الانسان بما أوتي من خصائص متميزة ان يدفع واقع القبيلة الى واقع جديد اهلها الى ان تأخذ مكانة تختلف من حيث الموقع مع ما كانت عليه وقد أصبح الشعر لازمة من لوازم الرجال الذين يقودون القبيلة الى مواقع النصر ، ويحققون لها الظفر في الحرب والقيادة في المارك والريادة في اخذ المواقع المتقدمة وقد ارتبطت قدرة التعبير بما يحقق لهؤلاء الابطال ما كان يرجى منهم ان يقدموه في مجال الظروف المتاحة ، لانهم كانوا يحاولون ان يجعلوا صلة الانتماء الاجتماعي بينهم قوية ، ووشائج الارتباط المصيري متينة ولانهم كانوا يدركون ان

كل الصور الشعرية تتجلى وحدة الامة التي كانت تبسدها القيم الكبيرة وتوحد وجودها الاهداف الخيرة وتعبير عن طموحها اناشيد الشعراء وتراتيل الحرب واهازيج النصر وهو يدفع الجحافل الكبيرة لساحات القتال .

لقد ساهم الشعر الى حد كبير في تأكيد القدرة القتالية من خلال تعابير الشعراء ، وشارك في توضيح الصورة البطولية التي كان يتمثل بها الشعراء وهم يستطيون الموت من اجل الحياة ، لان المنطق الشعري ظل اداة التوثيق للمنطق القتالي ، وبقيت قوة الكلمة مواكبة لقوة الاندفاع من اجل تسجيل المجد القبلي ، وفي حدود الاطار النضالي الذي تحدده طبيعة التعبير وسلامة اختيار الصور التي تأخذ طريق الانتشار ، لقد كانت اجواء القصيدة تجد صداها في النفوس ، وتتدافع معانيها في الافواه لانها كانت تحمل مجد القبيلة وتعطي صورة التاريخ الحافل ، وتدخل في النفوس بواعث الاعتزاز ، وفي ظل هذه الظواهر تعالت اشعار الحماسة ، وتوقدت نوازع الاتساع في تدقيق اجزائها ، وتفريع اساليبها والقول في كل باب من ابوابها ، لانها كانت تشكل الدائرة الكبيرة ، وتمتلك الوان الاعجاب الذي ظلت دلالاته ترسم

وشعر الحرب امتداد للبطولة التي يحاول من خلالها الشاعر ان ينتزع - وفي احياءات المعاني التي تتضمنها القصائد - من خصمه كل اسباب المقاومة ، ويطلب من شخصه كل مقومات الجاهلية ، ويسرب اليه من ثنايا الابيات عناصر الضعف التي يرسخها في نفس هذا الخصم ، او يؤكد في قبيلته ، معددا له مواقع الهزائم التي منيت بها هذه القبيلة ، والانتصارات التي حققها الشاعر او غيره من ابناء قبيلته ، وهي محاولة يدخل في تضاعفها التأثير النفسي ، وتعمل فيها عوامل التداعي التي تتراكم في صور الهزائم ، وتجسد في تكثيف اخبار الفرار ، واعداد القتلى وهنا تدخل الى نفس هذا الخصم صورة الهزيمة امام هذا السيل المتراكم من صور الضعف التي جذها له الشاعر ، وصورة القوة التي بدأ يتصورها في حديث خصمه ، وبعد ان تبدأ هذه الصورة تكبر يستغل الشاعر هذا الجو النفسي الجاهز الذي يجد فيه القدرة على الاجهاز فيجهر عليه ، ويحقق نصره وهو في كل صورة من هذه الصور يدافع عن حقيقة آمن بها ، ويدود عن قيم انسانية ترسخت في كل تعبير من تعابيره ، ويجاهد من اجل تثبيتها في كل عمل من اعماله .

معايشتهم الاحداث بدقة يؤهلهم لتحقيق المطامح المشروعة لابناء قومهم ، ويمكنهم من المشاركة في صنع الصورة التي تتبلور فيها المسؤولية الاجتماعية وفق الشكل المتكامل . ولعل منزلة الشعر في نفوس العرب وقديسته وارتباطه بالسحر ، وما قيل بشأنه من اقوال ، واحيط به من اساطير ، ومارافق الشراء من اهتمام ، واحيطوا به من رعاية من قبل ابناء قومهم قد ترك لهذا العامل اثره في تحديد العلاقة بين البطل وقول الشعر من جهة ، وبين القدرة البطولية وما احيط به الشعر من جهة اخرى .

ان الاعتزاز بقول الشعر ، والاعتداد بالشعراء الذين يحملون على عواتقهم مهمات الاحساس القومي دفاعا وانتصارا ، اقتدارا ومجابهة يمثل الصورة الجماعية التي كانت تعطي هذا الاهتمام قدرة من التحمل ، والمظهر الواسع الذي يمثل القبيلة ، وفي هذين الاعتبارين تتجلى شخصية الشعر العربي الذي ظل يحمل تصور الشعور العام دون الخاص ، ويتفق مع الحدود الانسانية الكبيرة التي تلتقي عندها آمال الافراد الذين تجمعهم صورة القبيلة ، وتوحد بينهم المصلحة المشتركة ، ويشير اهتمامهم المسير الذي يحيط بوجودهم القبلي والقومي .

القسم الثالث

ان استمرار الحرب واشتداد ضراوتها قد تركت اثرها في تخصص شعر الحرب ذاته ، وفي توجيه الوجهة التحقيقية من الاغراض التي كان يسمى اليها الشعراء فكانت مجاميع شعر الحرب موزعة بين (الموثبات) و (المندرات) و (المؤنبات) و (النصفات) وفي كل باب من هذه الابواب تماثل المعاني ، وتحدد المواصفات ، وتتفق الدلالات ، ويحرمس الشعراء او الشواعر على تحشيدها وتجميعها لتأخذ طريقها الى كل نفس ولتؤدي دورها عند كل موقف لان هذه الاصناف كانت تمثل وجهها من وجوه الحرب فالموثبات تعني القوائد التي كانت النساء تقولها لاستشارة النفوس وتحريض المقاتلين والدعوة الى رفض الاستكانة ، وتمزيق حجاب الخنوع ، وقد تضمنت معانيها كل وسائل الاستشارة بما كانت تعرفه المرأة الشاعرة وهي تباشر اغراضها وتعرف المواطن التي يمكن ان تستفز بها هم الرجال وعزائم المقاتلين ، الى جانب الاحساس بالسبي الذي تحاول التلميح له في بعض المعاني وقد استطلعت مجاميع الشواعر من النساء ان يقدمن مجاميع رائعة من هذا الفن

ان صور الشعر التي يستخدمها الشاعر في هذه الاحوال لم تكن موافقة للصورة المألوفة ، ولم تكن صيغ التعابير خاضعة للبناء الشعري الذي تعود الشعراء على سلوكه في الاغراض التقليدية وانما هي صيغ متخصصة ، واختيارات مدروسة ، وموضوعات محددة تقتضيها طبيعة الظرف ، وتفرضها نوازع الحالة الراهنة وتأخذ بعدها فيها طريقة الحديث المطلوب ، لتكون الكلمة قادرة على اداء دورها ويكون الغرض موفقا في طرح المسألة الحادة ، ولتصبح الصورة الشعرية مشحونة بالقدرات القتالية المتمكنة التي تستطيع رفع الشعر الى المكانة السامية التي يباشر فيها مهمته ، ووضعه في المنزلة التي تجعلها مقبولة لدى الآخرين من الناس .

الشعري الذي يدخل عاملا مؤثرا من عوامل الحرب بعد ان اكتسب خصائص متميزة ، وصورا متفككة ، وايحاءات شعرية نابضة امتازت به الشواعر ، وعرفن طريقة استخدامه ومثل (الموثبات) القصائد التي اطلق عليها (الموثبات) والتي تتداخل في هذا المعنى لانها تقف عند المعاني ذاتها ، وتتجه الاتجاهات التي عبرت عنها ، وتلك النهج الشعري الذي نهجته . اما [المندرات] فهي القصائد التي اندر فيها اصحابها اقوامهم من غارات ازمع الاعداء على القيام بها ، او تحديدهم من مغبة هجوم كاسح او كارثة مهلكة او مباغتة حربية ، ويمكن اعتبار قصيدة لقيط بن معمر التي اندر فيها قومه من هجوم كسرى وما اعده لقوم هذا الشاعر من اساليب دمار وهلاك من اشهر القصائد التي قيلت في هذا الباب . وتظل [المنصقات] التي انصف فيها الشعراء خصوصهم وذكروا فيها ما ابداه الخصوم من صلابة في الجلال وقدرة على المقاومة تمثل الجانب الاخلاقي الذي تميز به العرب حتى في حروبهم وقتالهم . . لقد استطاعت هذه الابواب ان تترك اثرها في شعر الحرب كما استطاعت ان تأخذ احجامها في دائرتها التي كانت تتميز بالاشتداد والضراوة ، وان كل باب منها يحمل من الدلالات المعنوية والصور

القتالية والاحاسيس التي كانت تصاحب هذا الضرب الشعري ما يعطي هذا اللون طابعا فنيا متميزا ، ويحدد له الخصائص البيانية الواضحة وربما يدخل في هذا الباب اشعار التحريض او المحرضين الذين كان لهم الفضل في تاجيج الحماس ، والهاب مشاعر المقاومة ، وتحشيد الناس لجبهة القوى الغازية او الطامعة وقد افرد لكل باب من هذه الابواب فصل في بعض كتب الاختيار بعد ان اصحت تيارا له مساراته واتجاهها عرفت المضامين التي يمكن ان تحتويها ابيانه وقد وجدت بعض هذه الاغراض ابوابها في مجاميع الشعر العربي فقد افرد الاصمعي للمنصقات بابا خاصا في الاصمعيات وذكر قسما منها فيها . ثم جاءت كتب الحماسة لتأخذ مساحة كبيرة في كتب الاختيار وكان حماسة ابي تمام اول كتاب اخذ مكانته في النفوس فانتزع اعجابها ، ووقع عليه الاجماع بسبب الاختيار الموفق ، والدوق الرفيع والحس الشعري الرقيق بعد ان خصص اوسع باب من ابوابه لموضوعات الحماسة ، ولم يكتف به وانما وضع كتابا آخر في الحماسة اطلق عليه اسم الوحشيات . ويرى الباحث في هذا الاتجاه ليضع كتابا في هذا الباب ولكنه يختلف من حيث عدد الابواب ومضمون كل باب من تلك الابواب . والتبويب الذي ادخله كان

أن هذا الاهتمام الواسع ، وهذه القصائد الكثيرة التي عرض فيها الشعراء لموضوعات الحرب والشجاعة والبالة وما يتعلق بمعانيها ويتأثر باغراضها تمثل التوجه الشعري الذي أخذت فنواته تعصب في المجري الكبير الذي كان يحرك الاحداث ويأخذ بناصية الدفاع عن القيم الاصلية ، ويسير باتجاه الذود عن الخصال الحميدة التي ارتفعت في النفوس واندفع الشعراء يحملون لواء الدفاع عنها ، ويوجهون الجمهور الى التمثل بها شعرا والحرس على تربية الابناء عليها من خلال النماذج الشعرية التي كانت تشرح بالدلالات الصادقة وقد اكتملت صورها شعرا واتقت وزنا وقافية .

وإذا كانت المرأة العربية قد دخلت الحرب شاعرة ومحرفة فان دورها لم يكن مقتصرًا على هذه الابواب ، وانما كانت تخوض ابواب الشعر الاخرى بنفس التصور ، وتعبّر عن الاحاسيس التي تعتمل في قلوب الناس وهم يعالجون اغراضها بذات الاحساس . وقد بقيت أسماء الشواعر العربيات تملأ القلوب بالحمية ، وتزيد في النفوس مكانم الحماسة ، وتوقد في كل موقعة الهب المشاعر ، وتنبث ارق الاحاسيس ، ولان كل صوت من اصواتها كان يشير هزة الكبرياء ، وكل موقف

اقرب الى موضوعات الحرب ، والصق بالجانب النفساني الذي يعترى احوال المقاتلين ، او يدفعهم الى دائرة المعركة وقد افرد بعض الابواب لما قيل في حمل النفس على المكروه عند الحرب وما قيل في الفتك والاصحار للاعداء والمكاشفة لهم وترك التستر منهم وما قيل في الانفة والامتناع من الضيم والخسف وركوب الموت خشية العار والتحريض على القتل بالثار وترك قبول الدية والتشمير عند الحرب وذم الفرار والتعير به واستطابة الموت عند الحرب والانصاف فيه ثم توالى كتب الحماسة فكان الحماسة للخالدين وحماسة ابن الشجري الذي افرد الباب الاول منه لباب الشدة والشجاعة ثم تأتي الحماسة البصرية التي جمعها صدر الدين ابن ابي الفرج البصري وهي من كتب الحماسة الكبيرة التي وقفت عند نماذج مما وصف به الانسان من شجاعة وشدة في الحرب ، وصبر في مواطنها وقد جمع في هذا الباب اكثر من مائة واربعين قطعة والى جانب هذه الحماسات المطبوعة فهناك كتب اخرى اختارت مجاميع متنوعة من هذا الفن الشعري وما تزال مخطوطة منها حماسة الاعلم الشنمري وحماسة الشاطبي وحماسة الشميم الخلي وحماسة المغريفة والتذكرة السعدية التي طبع قسم منها .

تميزة تتحقق صورها في المجالات الواسعة التي تحركت فيها ، وميادين العلم التي شاركت في تقديمها ، وحقول البحث التي ظلت فيها قادرة على اغناء المعرفة ورفد جوانبها المختلفة بما قدمته من عطاء . وبذلك استطاعت ان تحقق اعمالا خالدة مكنتها من تسجيل الفاخر الحميدة والخصال الكريمة . واذا قدر لاعمالها الكبيرة ان تجمع ولماثرها الجليلة والانسانية ان توحد ولمعارفها الواسعة ان تلم ولمشاركاتها المتعددة ان تحصى لوقفنا على سيرة رائعة ومسيرة خالدة ، تسج في تخليدها ازوع الصور ، وتكتب في مجال بطولاتها اخلد الاعمال ولبطولاتها الفريدة وتضحياتها النادرة امجد الصفحات واعزها ، لان تاريخ هذه الامة - وبكل جوانبه - حفل بمجد المرأة ولبطولتها وزخر باعمالها وتضحيتها ، وغنى بمشاعرها واحاسيسها التي ظلت تغني به تيسار الحياة ، وتروي بفيضها زهو المجد الانساني الذي حملته في نفسها .

ومن الطبيعي ان يكون السلاح عنصرا اساسيا من عناصر الحرب لان في قوته وقوة حامله تتحدد النتائج ، وفي حسن استخدامه تتضح ملامح القدرة القتالية للمقاتلين ، وفي التدريب عليه والتنشئة على معرفة صنوفه والاستعداد

من مواقفهم يمثل لوحة تمجز عن تصويرها روائع اللغة وخوالد البيان ، وكل عمل من اعمالهن يتجاوز خوارق القدرات ، ويمتلي حواجز الوقع المحدد . وقد استطاعت المرأة ان تفرض نفسها عبر القرون لتكون نموذجا متقدما في كثير من جوانب الحياة بعد ان اخذت موقعها في التأليف ومكانتها في ابواب الدراسات فخصص لكل باب من ابوابها فصل فقد الف في (اخبار النساء) حوالي خمسة عشر كتابا تضمنت احوالها وطبائنها وطرق معيشتها واورسافها وما تعجب به او تعرض عنه وما قيل فيها او روي عنها ، والف في اخبار الشواعر مجموعة اخرى ، ويمثل كتاب اشعار النساء للمرزباني قمة هذه الكتب وقد وصل اليها جزء منه اما الاجزاء الاخرى فما تزال في عداد المفقود من التراث العربي ومثله كتاب بلاغات النساء لاحمد بن ابي طاهر الذي ذكر طرائف كلامهن واخبار ذوات الراي منهن واشعارهن في الجاهلية والاسلام ، وكتاب النساء الشواعر لابن الطراح وهو كتاب جليل في عدة مجلدات ومن الحديثين جمع لويس شيخو مرثي ستين شاعرة من شواعر العرب ، وجمع بشر يموت مجموعة اخرى من اشعار شواعر العرب . وتظل قدرة المرأة في العصور التي تلت العصر الجاهلي قدرة

لجابهة الخصوم عن طريق الاحتفاظ به والحرص عليه تستقر طبيعة الحياة وتشد أواصر الترابط وتوحد جهود الأمة ، ولا بد ان يكون لتأثيره وجه متميز من وجوه الشمر الذي يعبر عن مقدرته ومضائه وان الاهتمام بالسلاح ظل يعني الاهتمام بالحياة وبالوسائل التي تشارك في جعلها حياة آمنة ومستقرة ، وفي تحقيق مطامعها المشروعة ، واهدافها التي لا يمكن ان تتحقق في معزل عن استخدامها في الدفاع عن الحق ، والدود عن الارض ، والوقوف بوجه التحديات التي تحاول فرضها قوى البغي والعدوان ، وقد آمن الانسان منذ مراحلها الاولى ان القوة التي يمتلكها تدفع عنه الاذى ، وتحول دون تعرض الآخرين لمسيرته ، وتمنعهم من التعرض له او التجاوز عليه او الاستحواد على ما يمتلكه من وسائل الحياة وهذا ما حمله على ان يظل محافظا على حماية السلاح لان في ذلك حماية للنفس ، وتحقيقا لاسباب الحياة وانتزاعا لكل حق وقع في قبضة الخصم وقد ظلت الامم تتفنن بسلحها وتنشد في تمجيده من غرر ادبها ما رفعه الى منزلة التقديس والتعظيم . والسلاح عند العرب - شأنهم شأن بقية الامم - بقي موضع اعتزاز ، ومجال تكريم ، ومثار احترام وتقديس لانهم ادركوا قيمته ،

وعرفوا حقه ، ووقفوا على اهميته التي كانت توازي اهمية الحياة ، وتستوي من حيث المكانة مع ما يقدمه من جلائل الاسباب ، وعظائم المواقف ، وخوالد الوقائع . وقد اقترن الحديث عنه بالحديث عن الفرسان لطول اللزمة وتواصل اسباب الحياة . ولان كل واحد منهما يكمل وظيفة الثاني ويحقق له القدرة ، ويعطيه المكانة المناسبة ، وقد امتازت احاديث الفرسان عنه باصطباح الفاظها بلون التعاطف وتمازج عبارتها بمشاعر الاحساس بالمشاركة ، وكثيرا ما يصفى الاعجاب زهاء المشرق ، وتكبر في عيون الفرسان احجام الادوار التي يؤديها ، وتزهو في قدرة سواعدهم قوته الخارقة وهو يطوي قامات الابطال ، ويسقط هامات المقاتلين ، ويخترق الدروع اللوامع ، ويشق التروس المضاعفة ، ويهوي بشواخ القلاع المتصعبة . ان الحديث عن هذه الأذرع المتشدة والسواعد الطويلة التي تمكن المقاتل من خصمه وتجعله يتلوى في دائرة قبضته لا يمكن ان تكون بعيدة عن تعابيره التي تصاحب كل عمل قتالي أو تواكب كل حركة من حركاته التي تحوله الى قطعة هامة او بقية انسان تتلاقفه الشباب وتنتهبه الوديان التي يجد فيها ملاذا .

ناد لهم اصوات الانتصار ، وتميش في كل موقعة
من مواقعهم احداث المواقف الرائدة ، وكانهم في
كل موقف يرددون قول جعفر بن عليّ الحارثي :

لهم صدر سيفي يوم بطحاء سَحْبَلِ
ولي منه ما ضُمَّتْ عليه الانامل

او يتمثلون بقوله :

نقاسيمُهُمْ اسيافنا شرّ قسمةٍ

نقينا غواشيها وفيهم صلُدورُها

وبقيت ساحات القتال وميادين الحرب
تشهد لهم باقدامهم الجريء ، واقتحامهم البطولي
وهم يعززون القول بالفعل ، ويوصلون الصورة
بالخطوة ، ويشدون اواصر القتال بكل ما يملكون
ليجعلوها متصلة الاطراف ، موحدة الفكرة ،
ويلدخلوا من خلالها الى كل مكرمة سجل او
مانرة تخلد ، او عمل انساني تظل ملامحه واضحة
القسمات ، وتميش آثاره متميزة النوازع .

إنا لشرخص يوم الروع انقنا

ولو نسام بها في الامن اغلينا

بيض مفارقنا تغلي مارجنا

ناسو باموالنا آثار ايدينا

ان الحديث الذي تحدث به الشعراء عن هذه
الاسلحة لم يكن حديثا عابرا ، وانما هو حديث
المناجاة والاعجاب ، حديث الاهتمام بكل جزء من
اجزائها ، وبكل ميزة من ميزاتها وكثيرا ما يأخذ
الوصف مضاءها وقوتها وعنصرها وجوهرها ،
يتحدث الشاعر عن حبه لها واصحابه بما تؤديه له ،
وزجوه وهو يحملها واندفاعه وهو يؤمن بقدرتها
هذا السلاح بعد ان اصبح مهيبا لمنازلة الخصوم
وجها لوجه وبعد ان تاكدت الحقيقة في نفه وهو
يقول :

تأخرت استبقي الحياة فلم اجد

لنفي حياة مثل ان اقدما

فلسنا على الاعقاب تدمى كلومنا

ولكن على اقداننا تقطر الدما

هذا الحديث كان يخرج من قلبه خالصا ،
ويعبّر عن احساسه صوتا انسانيا متميزا ،
تتناهى في طواياه احداث الحرب ، وتتماوج في
ثناياه وقائع الايام ليصبح اغنية عذبة يسجل من
خلالها الرجال ملاحم البطولة ، ويكتبون صفحات
المجد ، وينشرون الوان الفاخر ، بعد ان تزدهر
فوق هامات الرجال اكاليل النصر ، وتعلو في كل

اسباب الصراع الذي كان يحدث من اجل ترسيخ وجوده ، وايقان كل المطامع التي كانت تحاول اخضاعه لجبروتها ، او اسقاطه في دائرة استفلالها ، او اجباره على الرضوخ لما تفرضه عليه من شروط ، ولان هذه الوسائل تمثل الطريق الذي يمكنه من الوصول الى المعادة والسيادة والعزة والمجد ، وقد وجد الثمراء في هذه العناصر الوسيلة الممكنة لتحقيق الاحداف وهذا ما دعا عامر بن الطفيل الى ان يؤكدنا في قوله :

يوم لا مال للمحارب في الحر

بِ سِوى نَصْرِ اسْمِهِ عَسَالٍ

ولجام في راس اجرد كالجد

عِ طِوَالٍ وَايْضَ قَصَّالٍ

ودلاص كالنهي ذات فضول

ذاك في حلبة الحوادث مالي

ان هذه العدة المتكاملة وهذه الوسائل المهيثة تعطي الانسان قدرة الدفاع ، وتدخل في نفسه فتاعة الاقتدار على المجابهة والتصدي لاسباب التهديد ، والتمكن من الاندفاع لرد أشكال الاعتداء ، وايقان محاولات التطويق والاحتواء التي كانت تمارس لاستلاب الحس القومي والحد

إني لمن معشر افنى اوائلهم
قول الكُفَاةِ الا اين المحامونا

لو كان في الالف منا واحد فدعوا
من فارس خالهم إيتاه يعنونا

إذا الكُفَاةُ تَنَحَّوْا ان يَنَالَهُمْ
حَدُّ الفُجَاتِ وصلناها بايدينا

واللاح عند العربي رمز تطوي تحته كثير من المعاني ، فرفعه فوق الرأس من اسمى آيات الاحترام ، وتحطيمه يعني الضعة والدالة ، وتسليمه يعني الخضوع والمسكنة ، وقد ظلت هذه المعاني حية في سلوكه القتالي ، يعتز بها ويتمك بكل قيمة من قيمها ، ويدافع عن كل رمز من رموزها ، لان اعتزازه بالرموز ، ودفاعه عن الدلالات يوثق في نفسه قدرة الاندفاع ، ويحقق في ذاته سلامة الاقتدار ويولد في كيانه استمرارية الاحتفاظ بالمواطن الإنسانية التي ظل امينا عليها ، حريصا على سلامتها ، وهذا ما كان يدفعه الى ان يحرص على اقتناء رمح مدبب وسيف صقيل وفرس جرداء ، ودرع سابعة ، لان هذه العناصر مجتمعة تمنحه القوة النفسية التي يتمكن بها من تجاوز مصاعب الحياة ، ومقاومة

الحاجة الحقيقية التي كان يؤمن بها ، ومن الاحاس العميق بما كانت تؤديه له كل عناصره ومن هنا كان تعظيمه لها واعجابها بها وتعاطفه معها وكان يعد نفسه غنيا لو استطاع الحصول عليه ووضعه في بيته وكثيرا ما كانت نظرات الاعجاب هذه تتحول الى حب متبادل لانها وسألهم في تحقيق الحياة وصيانة الشرف والدفاع عن العزة وتطمين الرغبات ، ولعزة مواقعها في نفوسهم ، وقيمتها في حياتهم كانوا يرهنونها اذا اصابهم امر عظيم او حلت بهم كارثة ، او تعرضوا لمألة قاهرة ، وان قيمة السلاح لا تكمن في شكله او صفه ولكنها تمثل شرف الرجل وهو قائم بما رحمتها له مهما كلفه الامر ، وفي قصة حاجب بن زرارة ورهنه لقوسه تمثل هذه المعاني وتتجسد الخصال العزيزة التي ظل حريصا على الوفاء لها .

ان اضطرار العرب الى اتخاذ هذه المواقف كان يتحدد في اطار الدفاع عن النفس ورد الهجوم والتصدي لمن يحاول الاغارة وان ظروف الحياة القاسية كانت تفرض عليه ان يجيد الحرب ، ويتقن اساليب القتال وان تكون الفروسية هي المثل الاعلى ، والهدف الذي يمس اليه كل مدرك لواقعه ، متحسس بظروف حياته ، وان تكون الشجاعة بكل ضروبها وسيلته الناجمة للوصول

من المشاعر القبلية التي كانت تتاجج في حالات الحرب وتشتار في مواقف التحدي وكان الشاعر يعلم تاثير السلاح ويعرف المهام التي يؤديها في مجتمعه الذي ترك لانه فرصة توسيع مجال قدراتهم ، بما يستخدمونه منها باعتباره اغلى ما يملكون واعز ما يدافعون عنه ، والصق حاجة بحياتهم وخاصة عندما تحقق النوايب ، وتنزل النوازل وتتلاحق عاديات الدهر وعبد قيس بن خفاف اليرجمي يهيه للنائبات كل انواع السلاح التي يراها ، ويعد لها كل متطلبات التهيئة التي تبعد عنه خطوبها فيقول :

فاصبحت اعددت للنائب

ت عرفاً بريئاً وعضباً صقيلاً

ووقع لان كحد الناب

ن ورمحا طويل القناة عولا

وسابغة من جواد الدرو

ع تسمع لليف فيها صليلاً

كماء الفدير زفته الدبو

ر يجره المدجج منها الفضولا

ان تقديس العرب للسلاح كان ينبثق من

وأجزائه وفي مجال التوافق النفسي والانجام
الروحي الذي يشد بينهما تتعالى قدرة الاعتزاز ،
وتلوح امارات الفخر ، وتشرق قمات النصر ،
وتزداد الصلة عندما يعرف الفارس (بصاحب
الصمامة) او (ملاعب الاسنة) . ويظل الفارس
امينا على شرف سلاحه وهو يتحرى نسبة
وسيرته ومضاهه ، وشدته في احتدام المارك ،
ويتعقب ايامه باحثا عن انتصاراته وكان من عادة
العرب انهم اذا اصابوا سيفا قاطعا تناقلوا خبره
وأطروده وظلوا يذكررون وقائمه وقد تجلى اهتمام
العرب بالسلاح في تخصص الشعراء بوصفه
وتابعتهم لمراحلته التي يمر بها فكان اوس بن حجر
من اوصف الشعراء لللاح ولا سيما القوس
وكذلك كان الشنفرى الذي كان من اكثرهم وصفا
للقوس ، ومثلما الشماخ وفي كل لوحة من الواح
هؤلاء الشعراء تتضح البراعة ، وتبرز قدرة
المعرفة الدقيقة ، ورغبة الوقوف على ما يؤديه ،
وتجلى هذا الاهتمام في كتب السلاح التي حفلت
بها كتب اللغة والادب والتاريخ فقد ضم كتاب
ادب الكتاب لابن قتيبة والمقد الفريد وفقه اللغة
للشالمى والمخصص لابن سيده ونهاية الارب
للنوبري وحقية الفرسان لابن هذيل الاندلسي
فصولا لكتب السلاح عرضوا فيها لكل اصنافه

الى هذا الهدف ، ولا غرابة بعد هذا ان يكون
التدريب على القتال ، ومعرفة طرق الحرب وما
يتعلق في ذلك من ممارسة ركوب الخيل ، وتحمل
المشاق منذ الصغر ، ومقاومة التحدي ، وتمجيد
معاني الشجاعة والجرأة والتضحية والوفاء ،
الاساس الاول في التربية العربية التي يحرص
عليها العربي ، ويسمى من اجل ترسيخها في نفوس
ابنائهم ، ليتمكن من ابقاء استمرارية هذا الجانب
الموروث ، والحفاظ على هذا التكوين الحربي
الذي تظل وشائجه متصلة ، وقنواته دائمة العطاء
ولتبقى القدرة القتالية العالية هي المعيار الذي
يحدد الموقع ، ويؤكد الوجود ، ويشد الابناء بالمجد
الذي يحرصون عليه . وهذا ما كان يدفعه ايضا
الى ان يعايش سلاحه بكل حياته ، ويتعمق لكل
همة تختلج فيه ، ويتلمس كل حركة يحاول
التعبير بها ، حتى كان يناديه باسمائه المشوقة
والقائه المحببة ، ويدعوه عندما يجد نفسه
بحاجة اليه ، ويناجيه حينما يجد الضرورة
واجبة ، وفي الطرف الثاني من الصورة كان السلاح
امينا على واجباته ، مخلصا في اداء هذا الواجب ،
وملتزما بما كان يوكل اليه من مهمات ، فيستجيب
لنداء الفارس الشجاع ، ويلبى دعوة البطل المغوار
وقد توثبت كل عروقه ، وتحركت كل اطرافه

على معاني الشعر وانما كان يتجاوزها الى القسي التي نسبت الى (رضوى) وهي امرأة عربية اخرى عرفت بصنع القسي وكانت القوس رمز الرجولة ودليل الشرف ، لانها الرقيق المخلص والوسيلة الوقية وقد عرف العرب بمهارة استخدامها ، وقدرتهم على اصابة الاهداف فقد ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد ان العربي كان يستطيع ان يرمى بالنبال فيصيب احدى عيني غزال دون العين الاخرى ، وكان احدهم يعلق ظبيا بشجرة ويرميه بالنبال فيصيب اي عضو شاء من اعضائه حتى يرمى فقراته فقرة فقرة فلا يخطيء واحدة منها ، وكما اهتم العرب بالقوس فقد اهتموا بصوتها وبلونها ، فهي في ضوء ما وصل الينا من الشعر صفراء دائما ولكن الشنفرى يصورها لنا حمراء تارة اخرى اما اصواتها التي كانت تجدثها عند الرمي فقد كانت تفتنهم فتنة شديدة تبدو في تلك الصور الشعرية التي رسموها ، وتتجسم في الاصوات الحزينة المولدة التي شبهوها بها وهذا ما حمل الشنفرى على ان يتحدث عن هذه الاصوات وهو يعبر عن احساسه الداخلي وغريته المولدة بعد ان انتطعت به السبل ، وتباعدت بمسيره المبالك وتهادته التناثف .

وهي مادة كبيرة يمكن دراستها وتحليلها والانتهاء منها الى نتائج موضوعية مهمة تكشف عن هذه الظاهرة عند العرب والاهمية الكبيرة التي استغرقتها في ادبهم والمعاني الكثيرة التي تناولوا بها هذا الجانب واثار ذلك في شعر الحرب الذي اتسمت ابوابه ، وامتدت معانيه .

ان هذا الحديث يدعنا الى ان نقف عند صناع هذا السلاح الذين ابدعوا فيه وبرعوا في صنعه (فابن مجدع) و (ردينة) و (سمير) و (قعضب) كلهم ممن نسبت اليهم السيوف والرماح ، ولم تكن (ردينة) المراء العربية بعيدة عن هذه الصناعة التي اقترن اسمها بكل رمح يصيب الخصوم او يظهر من المضاء ما يدعو صاحبه الى ان يتغنى باسمه فيقول عميرة بن جمل :

اسم ردينيا كان كعوبه

نوى القسب عراضا مزجا منصلا

ويقول الحصين بن الحمام :

يهزون سمرا من رماح ردينة

إذا حركت بقت عوامتها دما

ولم يكن السيف والرمح وحده قد استحوذ

فوصف قومه منذ ان كانت قناة من نبع الى ان
تمت تسيوتها واعدت للرمي وقد تجاوزت ابيات
كل واحد من هذين الشعارين العشرين بيتا وني
لوحتهما يبرز الفن الشعري الرائع ، وتجسد
الشاعرية الفذة التي دفعت هذين الشعارين الى
ان يخصصا هذا الشعر للحديث عن السلاح الذي
كان الوسيلة الاساسية في بناء الحياة ، والمجال
الحقيقي الذي يمكن ان تتحرك في اطاره القصيدة
الحرية لان هذا الجانب يمثل وجها واحدا من
وجوه الشعر العربي وهو الوجه الذي اخذ الشعراء
مهمتهم في ابرازه والاعتناء به والوقوف على مظاهره
اما مضاء هذا السلاح وصور القدرة القتالية العالية
التي يؤديها المقاتل والميدان الفروسي الذي تشامخ
في رحابه وطاقته فهو مجال آخر يمكن الحديث عنه
في موضع آخر .

ويقف عند السلاح الذي أصبح الرفيق الحقيقي
له في رحلته الطويلة ، وعلاقاته الانسانية .

واني كفاني فقد من ليس جازيا

بحسنى ولا في قربه متعلتل

ثلاثة اصحاب نواد مشيع

وابيض اصيلت وصفراء عيطل

خسوف من الملس المتون يزينها

رسائع قد نيطت إليها ومحمل

اذا زل عنها الهم حنت كانها

مرزاة تكلى ثرن وتعمول

وكما اهتم العرب باصوات القسي والوانها ،
اهتموا بصنمها وكيف كانت تعمل ، والشجر الذي
تؤخذ منه ، وكيف يتمهدون عوده وهو صغير
فيختلفون إليه حتى يصبح صالحا لاتخاذ القسي ،
ثم يبدؤن بسقيها ماء لحائها ، وتم هذه العملية
بتقطيع هذا العود وهو رطب ثم يترك في الظل حتى
يجف ليكون اكثر صلابة . وقد صور لنا اوس بن
حجر ذلك بتفاصيل دقيقة وملاحظات شعرية توحى
بالاهتمام الكبير الذي كان يولييه لهذا السلاح
وكذلك صنع الشماغ الذي تابع اوس بن حجر

متميزا من الاصوات الجريئة التي كانت ترتفع لتجد
الموقع المناسب ، والشعر في كل هذه الاطر يمثل
الصورة الواسعة التي تختفي في زواياها اصداء المعارك ،
وملحة اللقاء ، وقدرات الشعراء الذين يحرسون
على تحديد الوان المعركة ، وحركة الاحداث ،
وقدرات الرجال ، والمآثر التي يمكن ان تضيف الى
القبيلة مجدا جديدا ، او مكرمة حميدة تزيد في اندفاع
البناء وتترك للاجيال القادمة موروثا من الخصال
يترك لهم مجال التباهي في نوادي القوم . وابن سلام
في هذا التعليل يقف على الاسباب الحقيقية التي
كانت تدفع الناس الى الحرب ، وتوجع نوازع القتال
وتثير كوامن الصراع ، وهو كذلك يعطي المسألة
الشعرية حقها في التعبير من خلال الموضوع الكبير
الذي يثيرها ، والدافع الاكيد الذي يلهب وقودها
الجزل ، ويفذي شواظها المتهب ، وابن سلام في
هذا التحديد يفسر الظاهرة الادبية تفسيراً واقعياً ،
بعد ان استطاع تشخيص العامل المؤثر في بروزها ،
وتحديد العنصر الفاعل في توسيع مداها ، لانها
كانت تمد الشعراء بروافد غنية ، وتهمء لهم مجالات
رحبة ، وتترك لهم الميادين العريضة التي تنطلق
فيها المواهب وتزدهر براعم القدرات ، وتبأري
ايداعات الشعراء بما يجدونه من موضوعات تفسح

القسم الرابع

لقد بقيت الحرب سبباً مباشراً من اسباب
الاستثارة ، وحافزاً قويا من حوافز الدفع الشعري ،
وعاملاً حاسماً من عوامل التأثير في توجيه العواطف
وانضاج الاحاسيس وقد التفت الى هذه الحقيقة
ابن سلام فقال « وبالطائف شعر وليس بالكثير »
وانما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين
الاحياء ، نحو حرب الؤوس والخزرج ، او قوم
يفيرون ويقار عليهم . والذي قلل شعر قريش انه
لم يكن بينهم نائرة (العداوة تقع بين القوم فتشير
الشرور) ولم يحاربوا وذلك الذي قلل شعر عمان
واهل الطائف « (١) » وابن سلام في هذه المقولة
يتحسس الآثار الواضحة التي يعكسها الشعر ،
ويحققها الشعراء وهم يتبارون في ميادينها ، ويمبرون
عن احساس الناس الذين تتصاعد في نفوسهم
الصور الانسانية التي تحاول ان تقدم الاعمال الجليلة
والمواقف الحاسمة ، وان كل جانب من هذه الجوانب
يعالج سورة من سور الحرب ، ويشارك في ابراز
قدرة من قدرات المقاتلين ، ويحقق صوتاً اعلامياً

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ٢٥٩/١ .

لهم الطريق واسعة ، وتمهد دروب الوسائل التي تمهد لها الحرب .

وإذا كانت موضوعات السلاح قد استأثرت بجانب كبير من جوانب شعر الحرب فإن أعمال الرجال وما أبدوه من تضحيات وسجلوه من انتصارات وقاموا به من أعمال كان لوحة أخرى من لوحات هذا الشعر الذي بقيت صفحاته الخالدة تتغنى بها وتقدمها للأجيال باعتبارها مظهرا آخر من مظاهرها ، ووجها متميزا من وجوهها يعبر عنه الإنسان الذي يدير دفة الحرب ، ويحرك أطرافها المتباعدة ، ويشير في كل جزء من أجزائها اللون الحي وينثر في حومات نزالها حقائقه التي تخفف من احتدام توقدها ، لان المظاهر الانسانية التي تتجلى في اخلاق المقاتلين ، وطبيعة سلوكهم الانساني ، وانصانهم خصومهم ، ورعايتهم لمن يقع في ايديهم من الاسرى والجرحى كانت تأخذ الزاوية الحية في الحرب ، وكانت تخفف من أوارها المتاجع وتمنح المقاتلين ظللا من ظلال الحس الاخلاقي الذي تميز به ابناء هذه الامة وهم في أحلك ساعات الصراع ، واشد مواقف الحسم ، ومثل ما كانت نوازع هذا الجانب تستثير حسهم الانساني فان مظاهر البطولة والثبات وقت الشدة ، وقدرة المقاومة ، والصبر على المكاراه ومطاردة الاعداء كانت تمتد الى دائرة

أخرى من دوائر الاحاسن لتعطيه من فيض مشارعها ما يوازن المعادلة ويحقق للحرب صورتها الحماسية، وعندنا تتكامل لوحة هذا الغرض عندما تتحقق الغايات في كل طرف من اطرافها بعد ان يؤدي المهمة التي اضطلع بها . فالشاعر الذي اختلفت في نفسه الاحاسيس وتحركت في داخله العواطف وأخذت منه مواقف الحرب مأخذا استطاع ان يصوغ الموقف بما يناسب هذا الجو النفسي ويعطيه من الالوان والظلال ما يترك لقومه المنزلة التي لا تسقطهم في دائرة الانكسار او الخذلان ، ولا تجعلهم مجالا لاحتمال الهوان او عرضة لاقوال الآخرين الذين يوغلون في ايديهم . والشاعر في كل هذه الاحوال يندفع من مواقع الحرص على ابناء قومه الذين وضعوا فيه كل ثقتهم ، وتركوا له تقدير الموقف ، وسلموا اليه مقاليد امورهم واعلامهم ، وهو يجد امامه فتونا شعرية وابوابا فنية ، ورحابا واسعة من الموضوعات التي تعطيه مجال التحرك ، وتترك له فرصة الاختيار ليأخذ منها ما يلائم ظروفه ، ويوازي الواقع النفسي الذي اعترى ابناء قومه في كل الاحوال .

ان هذه الحقائق التي استأثرت بها الشاعر وهو يؤدي مهمته ، والشعر وهو يوظف لهذا الفن المريض تحدد الموقف الواضح الذي تسنمه وسط

الغزة التي يشيد بها الشاعر او تتم في عمل يقوم به أحد ابنائها ويتحول على لسان الشاعر آيات فخر خالدة ، يتناقلها الابناء في كل ميدان ، وينشدونها عند كل محفل . وفي ألوان فنونها المتقاربة تتصاعد هواجس الإنسان وهو يتف على عتبات المراحل الحاسمة ، ويتصور النتائج المتوقعة

ويقدر المصير المنتظر ، وفي عزمات الرجال الميامين الذين يملكون القدرة على تحديد الموقف وفي شدة قبضاتهم التي تسدد الى الرؤوس والصدور ، وفي سرعة انقضاضهم وهم يتحكمون في ادارة محور المارك ، وفي سعة خطواتهم وهي تصل الرماح الى نحور الاعداء ، تكتب اللاحم الخالدة ، وتعلم المواقف الرائعة ، ويحدد الرجال الأبطال الذين تظل عيون القوم مشدودة الى أعمالهم التي توجه المعركة ، وافكارهم التي تعطى الوجه القتالي ، وحكمتهم التي تقرر النتائج الباهرة . وان هذه الاشكال الجديدة التي افرزتها أحداث الحرب قد وسعت دائرة الشعر العربي الذي أصبح يتحرك فيها ويفتخر من ساهلها كما أنها فرضت عليه مهمات جديدة وتبعات قومية وقبلية أصبح ملزما بالدفاع عنها ، وخاصا للاستجابة اليها لان التزامه بها وانصرافه الى معالجة شؤونها كان الميول الحقيقي لموقفه الملتزم ، والمقياس الذي يتروك

أحداث متراكمة وظروف معتدة وأيام متواليه وحروب مستمرة حتى أصبح بإمكانه ان يكون السبب المباشر في اشعال نار الحرب او انهاء جذوتها وإيقاف لهيبها واستلال الضغائن التي تمكن من القلوب وتأخذ بكل التوازع التي تدعو الى استمرارها .

وبإمكانه أيضا ان يكون الصوت الذي يرسم صورة الفواجع الدامية التي تترتب عليها وينذر الداعين الى تأجيج أسبابها ويكون الصرخة القوية التي تحفز القوم الى التهيؤ ، والتشيد الحربي الذي يشد الابناء الى الدفاع عن الارض واللود عن الحمى والحرس على القيم النبيلة التي تصان جرمتها . وبإمكان هذا الشاعر ان يتحدث عن الحرب في كل غرض لان أواصر الشد بين كل الاغراض تتصل بهذا الفن الشعري لانها تصب فيه وتنبثق منه ، وتتسجم مع كل المعاني التي يريدها الشاعر ، باعتبارها عوامل أساسية في تكوين الاطار العام لها ، وعناصر فاعلة في تحقيق الهدف المطلوب منها ، وجزئيات متحركة في تشكيل الخطوط العامة التي تنتهي اليها ، وان كل صورة من صور الحياة تتحقق في صورتها التي يمكن ان يوفرها الانتصار وان كل مجد بطولي يضمنى على الابناء هيبة الاحترام ، ووقار الاعتزاز يتحدد في مجال التضحية

للآخرين تقويمه من خلاله . وفي ظل هذه الحقائق أصبحت الصورة في ذهنه مترابطة ومتداخلة تنماسك فيها مهمته القبلية وموقفه الشعري ، وتحدد في دائرتها قدرته الشعرية ومواكبته التي تمكنه من انتزاع المواقف الحادة ، والالتزامات الحاسمة وهو في كل هذه الصورة العنصر المقندر في توجيه الاعمال وما يترتب عليها في كل باب من ابواب الحياة الاخرى التي تجد طريقها اليه .

والشعراء كانوا يدركون ان الفارس وهو يمارس الوان الشجاعة ، ويقدم نماذج الاقتحام البطولي هو جزء لا يتجزأ من المجتمع الذي منحه هذه الصفات ، ووهبه هذه المسؤوليات ، وان الابناء الذين يتطلعون الى هذه الصورة والنساء اللواتي يراقبن هذه الصفة الحميدة يعلمون بانهم يخوضون ميدان تدريب ، ويميشون مجال تجربة، وانهم سيتحملون هذه المهمة في يوم من الايام وسيؤدون دورهم على الوجه الاكمل بما يحقق لهم مثل هذا الفخر المسجل ، ومثل هذا التاريخ الخالد وان هذا التفكير الذي كان يشغل الجميع حدد المسؤولية لكل واحد وان التبعات المترتبة يتحملها الكل دون استثناء ، فالنصر الذي يحققه اي انسان من ابناءها هو النصر الذي يتوج حياتها ، ويوقع مكائنها ، ويعلي قدرها ، وان الارث القتالي او

الظفر البطولي الذي يكتب في اية معركة هو الارث الذي تبقى عناصره فاعلة في كل مائة تذكر لهذه القبلة ومن هنا كانت التربية الحربية والحرص على بقاء السيادة جانبا اخر من الجوانب الشعرية التي اهتم به الشعراء وهم يعالجون هذه الموضوعات لان الحفاظ عليه والحرص على استمراره وبقائه كان يترك لهم فرصة التطلع الى المكائنة الرفيعة فلا يهلك منهم سيد الا اخذ الامر عنه غلام سيد ، وقد عد ذلك من ظواهر الاعتزاز والفخر ولان الاحساس الذي يسيطر على طبيعة التربية يصبح في مجال التأثير المستمر بالصورة التي يطمح الجميع اليها بعد ان اصبحت اللوازم مهياة ، والعناصر التي تحققها قائمة وهذا ما دفع الشعراء الى ترسيخ هذا المعنى ..

وليس يهلك منا سيد ابدا

الا اقتلينا غلاما سيدا فينا

او كما قال لقيط بن زرارة :

واني من القوم الذين هم هم

اذا مات منهم سيد قام صاحبه

او قول السمؤال :

عنها القبيلة ، لان اختياره والوقوف على صفاته ،
 والتأكد من توفر الخصائص التي تؤهله يعني
 استمرار المجد والقدرة ، ويعني بقاء القبيلة مؤمنة
 بوجود النموذج والرائد الذي ظلت تفتش عنه
 وتسى الى الاهتداء اليه من خلال القيم الاجتماعية
 والمثل التكوينية التي تعطيه هذه الخصيصة ، وان
 الاستعداد الذي كانت تهيم له القبيلة في كل اشكال
 التربية والاعداد والاستكمال كان يعطي القبيلة
 حرية الاختيار اولا والتفضيل في حالة الاستواء
 ثانيا وتهيئة البديل في حالة الفقد ثالثا ، وان هذا
 الحرص الذي يترك مجالات الاختيار مفتوحة كان
 يتيح فرصة التنافس لتقديم القدرة الاحسن ، وان
 ترسيخه في كل النفوس ومن خلال التجارب
 والممارسات يبعث في نفوس الابناء الثقة ويمسق
 الايمان بسلامة الحفاظ على سلسة الفرسان الذين
 يظلون يحملون الوية النصر ، ويرفعون غايات
 الظفر ، ويحققون المطامح المشروعة .

والشعر الذي اعطى كل جوانب الحرب حقها
 استطاع كذلك ان يواكب دقائقها بامعان ، ويراقب
 وقائعها بتأمل لانه كان يحرص على ان يعطيها
 حجمها الذي تستحقه في الموازنة وان كل الصور
 الشعرية التي كان يقدمها كانت تستمد اشكالها من

اذا سيد منا خلا قام سيد
 قؤول لما قال الكرام فعول
 او قول حاتم الطائي :

اذا مات منا سيد قام بعده
 نظير له يعني غناه ويخلف
 او قول عروة بن الورد :

اذا مات منهم سيد قام بعده
 على مجده عمر المروءة سيد

فاليادة في استكمال الصورة التربوية
 للنشء ، والحرص على بقاء روح التطلع عندهم
 وتوجيه القدرات الحيوية الوجهة التي تحتاج اليها
 القبيلة . كانت تمثل الطرف الاول من التوجيه
 الاجتماعي والفكري للبناء كما ان الحرص على
 استمرار وجود هذا الاحساس في كيان القبيلة
 والتأكيد على بقاءه حيا في كل مفصل من مفاصلها ،
 يشكل النظرة الشاملة للاطار الذي كانت تدور فيه
 كل اعمال القبيلة ، ويحدد لنا مجال التفكير الذي
 ترسخت قيمه في هذا المجتمع وان هذا التفكير كان
 يتشابه في الملامح المتداخلة لصورة البطل الذي
 كانت تتحدد في خصائصه كل الصفات التي تفتش

أو كقول زهير بن أبي سلمى :

فتمركم عرك الرحى بشغالها

وتلقح كشافا ثم تنتج فتشُم

وقد اخذت هذه الصورة مساحتها في قصائد الشعراء وهم يتحدثون عن ثقلها وقوتها وشدتها وكيف يكون الخضم طحينا بعد ان تطبق عليه الرحى ، وكيف يسحق ويتناثر على ثغالها متقاطعا من بين فجواتها ومتخذا من دروبها ملاذا يحاول التسلسل منه والمبور من فتحاته . ولا بد ان تتعالم هذه الصورة في ذهن الانسان وهو يتابع المراحل التي تتهاوى فيها دورات هذه الرحى واصوالها المتلاحقة وهي تطبق بكل قوتها على اللهوات المتوالية التي تغذى بها فوهة الرحى وكيف تتحول في جولة واحدة الى مسحوق متطاير أو شذرات متناثرة (١).

وقد وجد الشعراء في صورة النار شاهدا آخر من شواهد الحرب ولونا متميزا من الوانها التي تغمر الاعداء فتحيلهم الى رماد ، ووجدوا في مفرداتها مجالا للاستخدام الموحى بالتأجيج والالهاب والتشبيب والتسمير والايقاد والاضرام وما ينتج

(١) تنظر نماذج هذه الصورة في كتاب شعر الحرب لعللي الجندي / ١١٤ - ١١٥ .

البيئة الحية والظرف الطبيعي الذي يعرفه كل المحيطين بها ، ويتصوره كل اللذين يشقون دروبها، وعند محاولة المقارنة بين حقيقة الحرب والصور التي شبهت بها في كل مرحلة تتوضع قدرة الشعراء على هذه الاستعارات ، وحكمتهم في صياغتها ، ومعرفتهم بما يمكن ان تؤديه كل منهما في مجال الواجهة وقد دفعهم هذا الى ان يحسنوا الاختيار نالحرب عندهم طاحنة تهلك الناس وتبيد البشر ونفتت الجمع وتسحقهم فتجعلهم طحينا متبددا لا يجمع شمله ، ولا توحد اجزائه .

وفي ابيات عمرو بن كلثوم اشارة صريحة الى ذلك حيث يقول :

متى ننتقل الى قوم رحانا

يكونوا في اللقاء لها طحيننا

يكون ثغالها شرقي سلمى

ولهوتها قضاة اجمعينا

أو قول مهلهل بن ربيعة :

كانا غدوة وينسي ابيينا

يجنب عنيزة رحيا مديسر

اما لقيط فيجمل شهاب الحرب علامة من
علامات الانذار وسطوع لهيها اشارة من اشاراته
وهو يحذر قومه من غزو فارسي تعده قوى الغدر
فيقول :

مالي اراكم نياما في بلهنية
وقد ترون شهاب الحوب قد سلما

وكثيرا ما كانت تقترن بهذه الصور صورة
الانسان الذي يتقود المعركة ويستعد لنتائجها
المتوقعة ويهيء لوازمها وادواتها وهو في كل حالة
من حالاتها يجد لها قرينة تنفق مع شدتها ،
وتوافق مع حالتها وكثيرا ما كانت صورة الناقة
وهي تلقح ثم تلد من الصور القرية التي وجدوا
وجه الشبه فيها واضحا ، لانها عندما تلقح تكون
محملة وكذلك الحرب التي تلقح نتكبر الاخطار
وتزداد المصائب وتعاظم الفواجع وان ولادتها
تتمخض عن ويلات ومآسي والام وهموم وكل ما
يعود على الذين اثاروها بالدمار والخراب والانهاز
وان غلتها ونتيجتها لا تسر وانما عطاؤها هو كل ما
تكرهون ، وان نتاجها هو كل ما يبعث في نفوسكم
السام والملل والضجر وان وطاتها وشدتها وقسوتها
ستكون ثقيلة وستحمل اولئك الذين دفعتهم

عن ذلك من وهج وشرر ولهب . والنار في شواظها
اللاهب وسعيرها المضطرم والتهامها ما يقدم اليها
من وقود جزل صورة مرعبة ، وفم لا ينهى شرهه ،
وحفرة لا تملأ اشداقها ، واستمارة الشاعر لكل
ما يحيط بها ويملا زواياها تشر نوازع الخوف
وتحفز عناصر الرعب وترهب قلوب المدعورين الذين
يخشون دبيبا ، ويخافون سريانا ، ويتهيبون
دخولها . وان الذي يبعثها ويحاول انارتها يتحمل
جنايتها ، وتقع عليه اعباء تاجيها ، وهذا ما حمل
قيس بن الخطيم على ان يقول :

وكنت امرأ لا ابعث الحرب ظلالا
فلما ابوا اشملتها كل جانب
وكتوله في قصيدة اخرى :

ان بني الامس حين تستمر الـ
حرب لكالنار تاكل الحطبيا
ويوغل عامر بن الطفيل في عمده الاوصاف
حين يقول :

وانا ابن حرب لا ازال اشبها
سمرأ واوقدها اذا لم توقد

اللغات تصب عليهم جراء ما اقترنت ايديهم بحق قبائلهم وشعوبهم بسبب دفعهم الى الهاوية والحاق الضرر بهم ، وفي كل محاولة من محاولات الشعراء كانوا يهينون لصورة البطل الذي بقيت ملامحه ترسم في كثير من المفاخر ، وظلت دلالات قيمه تتوارد في كل اسلوب من اساليب الحياة ، ولدخل في كل مجال من مجالات تقويم الاعمال الانسانية من اجل ان تبقى هذه الصورة الشامخة حية في ذات الامة ، وكما بقي معنى الحرص على استمرار وجود البطل صورة من صور البقاء والخلود فقد بقي هذا المعنى نموذجا في قصائد الشعراء لانه يمثل زاوية اخرى من زوايا ذلك الاستمرار ، واساسا من اسس الحفاظ على دلالة البطولة في التكوين القبلي والقومي ، ولنسفة التضحية التي كان يقدمها الفرسان كانت تجسيدا حيا لمفهوم القدرة على امتلاك ناصية المرحلة البطولية التي كانت تعيشها الامة في تلك المرحلة وهي تجسيد لحيوية الامة ، وادراك لاستمرار تحركها الدائم من اجل تحقيق الذات ، ومن هنا كانت اعمالهم تمثل النضال الدائب والممارسة الفعلية لما تعنيه الامة في ذاتها من اجل استمرارية وجودها وانتزاع كل الاشكال الضعيفة والسائبة والمتخاذلة التي كانت تلوح في بعض المواقف .

الاحقاد الى مباشرتها كل النتائج المترتبة عليها ، وسيقعون في دائرة اوزارها التي لا ترحم ..

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم

مضى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضر اذا ضريرتموها فتضرم

فتعركم عرك الرحى بشغالها
وتلقح كشافا ثم تنتج فتنتيم

فنتج لكم غلمان اشام كلهم
كاحمر عاد ثم ترضع فتفطم

وتتوزع صور الحرب بين الاشكال المستهجنة الاخرى التي تثير الاشمزاز وتترك مرارة الاثر وتؤدي الى الطعم المستوخم ، وبين الحيوانات التي تكسر عن نابها ، وتلقف ما تراه وتبتلع ما يقدم لها. وهي في غالبيتها صور لا يجد فيها الشاعر الا الشؤم ولا يتوقع منها الا الشر ولا يحس عند مجابتها الا الشراسة والوحشية وكانهم كانوا يزومون من خلال كل هذه الصور استهجانها ودفع الناس عن الوقوع بها ووضع الداعين لها في مواضع النقد وحصصهم في دائرة الضوء التي تظل

عريقة ، توطدت مفاهيمها في نفوس الاجيال وتواصلت حقيقتها في السلوك القتالي المستمر الذي ظل يلح على ابراز هذا الجانب ويؤكد من خلال الممارسة الدائبة التي كانت تبني الذات العربية في كل صفة خيرة وخصلة كريمة ، وفضيلة محمودة ، وهي اطراف كانت تحدد الصورة المتكاملة للشخصية العربية ، وتحقق الاطار الانساني لتكونها المباشر ، لانها لم تقف عند حدود القوة ، ولم تستقر في دائرة التسوية . او تهوي في منزلق التجاوز اللاواعي ، وانما هي لوحة متكاملة تتداخل فيها الخصائص الانسانية البناءة ، وتشابك في تلويها روائع التفاني والتضحيات ، وتزدهر نسي اعمالها خوالد المواقف الرائدة في كل مجال لانها صورة للانسان القل ، ونموذج للقدرة الموجهة المتمثلة في قول بشامة بن الغدير :

لو كان في الالف منا واحد فدعوا
من فارس خالهم اياه يعنوننا

او قول طرفة :

اذا القوم قالوا من قتي خلت انثي
عنيت فلم اكسل ولم ابلد

لقد حاول هؤلاء الفرسان ترسيخ مفاهيم البطولة في مقارعة الخصم ، وتجاوز المواقف الضعيفة الى المواقف الحاسمة مهما كلفتهم من تضحيات ، لانهم كانوا يعلمون ان الحفاظ على الوجود والدفاع من اجل تثبيت المفاهيم تحتم عليهم ان يتخذوا هذه المواقف . ومن هنا كانت صور الهزيمة والفرار والبخل والامتناع عن تلبية نداء المحتاج ، والهجاء بكل اشكال الصور المخيفة في المجتمع تعد من الصور التي يأنفون ان يوصفوا بها لانها تحمل الدل وتطبع اصحابها بطابع المهانة وتصممهم بوسمة العار ، لانهم يعلمون ان وصمة الهجاء سوف تلحق بهم لاجيال طويلة ، وسوف تظل اجيالهم تصانئ منها ، وتتأثر من اسبابها ، وتحمل من تبعاتها ، وهم يشعرون ايضا ان تثبيت خصائص المجتمع وخصاله الاصلية تتناهي مع هذا الجانب الذي لم يترك في بناء المجتمع الاقيما هزيلة ، وخصائص مرذولة ، فالحياة في اعرفهم وممارساتهم كانت واضحة تجلت فيها كل مظاهر تمجيد القوة ، لانها السبيل الذي يرسم طريق العز ، والصورة التي تؤكد الوجود والذات ، ولانهم ادركوا ان الضعف مظهر الانحلال وطريق الفناء وسبيل الاستسلام والضياع ، لقد كان المفهوم الانساني الذي تمثله الامة امتدادا لبطولة تاريخية

أو قول الآخر :

إذا القوم قالوا من نبي لعظيمة
فما كلهم يدعى ولكنه الفتى

ان صورة الاستجابة وفق الشكل الذي حدده الشعراء يعكس لنا مفهوم الوفاء الذي ظلت الامة حريصة عليه ، ومفهوم الشجاعة والمروءة الذي ظلت تتحدى به الموت ، وتتعامل بموجبه مع كل الاحداث ، وتستعين بكل النوازع التي تحاول الاستحواذ عليها رغبات الحياة الضائعة ، وتتقدم بكل جراءة وشجاعة لتحمل راية الاقدام بلا تردد ، وتشر صوت الحقيقة بلا خوف ، لانها لم تجد لها حياة افضل من التقدم ، ولم تجد لها عيشا كما يكون في الاقدام ، ولان الاحدوة الجميلة ، والنجع عند الناس في الاهداف الحميدة ، انما يكون بالتقدم لا بالتأخر وبالاتخار لا بالانحراف ، وعندها يكون العمل اخلاذ ، والذكر ابقى ، وقد استطاعت هذه الخصائص المتقاربة ان تطبع تاريخ الامة بطابع الميل الانساني والتعامل الواعي لكل الدواخل الاصلية التي ظلت تنامي في نزعات اليناء ، وتتضح في تعاملهم الحضاري من خلال تجاربهم مع الشعب ، فاستطاعت ان تشكل اتجاهها حضاريا متميزا ، وصورة بشرية رائدة تحمل عناصر الخير ، وتحدد

اواصر القيم الاصلية ، وترمز الى الشخصية الواحدة المتماسكة التي تؤمن بأعادتها في الحياة ، وتدرك رسالتها في المجال التكويني للانسان ، لان هذه النفس اعتمدت الثقة المطلقة في العمل ، واسترشدت بالشخصية المتكاملة التي ظلت صورتها ماثلة في الدهن من خلال شخصية البطل الحقيقي في كل مجتمع مهما كانت حدوده وتوطدت ابعادها في ظلال المجتمع الكبير الذي ظل يقدم الاعمال الخالدة ، ويمجد الصفات النبيلة ، ويوحى لابنائها عن طريق الممارسة بالتربية الحية والعقلية والاجتماعية والاخلاقية ، فالتوجه نحو الاعداء في الحرب ، وعدم الاعراض عنهم درس تربوي نسي الحرب ، وتمرين في الممارسة الفعلية ، وتطبيق عملي لما يجب ان يكون عليه الفرد والاثبات في الميدان ومواجهة الخصم ، والايمان المطلق بالحق في كل قضية مسألة واضحة ، وحالة متعارف عليها ، والشعور بوحدة المصير والاحساس بالدفاع عنها ، والالتزام بمضامينها ، دفاع عن الوجود ، وبسبب من اجل البقاء ، وصورة من صور التضامن الحياتي ، فالظهير الجماعي لهذه الخصال فرض على البطل الالتزام به والدعوة الى تاييده في كل جانب ، والاخذ به عند كل حالة ، والدعوة اليه في كل صورة .

غير محدود ، ويدل من أجلها ما يحرص الآخرون على جمعه . فالبطولة صورة واضحة اللامع ، مجردة الرؤية ، تتوفر فيها عناصر الروءة بكل قيمها من وفاء وحمية وكرم ونجدة وفصاحة وتضحية وجراة وكل الفضائل التي آمن بها المجتمع ودعا الى التمسك بها ، وهي انسانية لها اهدافها المرسومة ، تمثل اطرافها في التعبير عن كل جانب من هذه الجوانب بما يستحق ، لانها تنبع من الوجود الحقيقي لهذا الانسان ، وتعيش في اعماقه وتيح فوق ارضه سورا من صور الحياة ، وتتخلل وجوده الاجتماعي قيما وتقاليد وتزهو في خواقفه سلوكا فدا ، وانسانية تستمد مظاهرها من الواقع البشري الذي بقيت اثاره تستقيم في الفهم ، وتنطبق مع الحقيقة ، وتنسبط مع كل عمل مقترن بالمعاني السامية التي لازمت دلالات الشجاعة لتتم الصورة الكاملة ، ويتضح النموذج المطلوب فالبطل الذي يقارع الاعداء يدافع عن كيان القبيلة والامة ، ويحمي شرفها ، ويصون حماها ، ويدب عن ارضها ، ويخوض المارك بجراة من اجل ايقاف كل تجاوز عليها يقري الجائع ، ويفك المعاني ، ويطمح المحتاج ويدفع الاذى عن كل مستجير ويدفع الظلم عن كل انسان لا يخون عهدا ، ولا يقطع وصلا ، ولا يتكث وعدا . ان هذا المفهوم

ولم تقتصر مظاهر البطولة في الشعر الجاهلي على جانب الشجاعة او التضحية ، وانما امتدت الى الصفات الاخلاقية الاخرى التي تتصل بالكرم والوفاء ، وتمتد الى الجراة والاقدام ، لان هذه الخصائص تمثل القدرة الذاتية التي تضفي على تلك الجوانب صفة الاكتمال . وتدخلها في اطار التحس الاجتماعي . وترك اثارها البارزة في كثير من الاعمال الجليلة لانها عناصر تبرز ظاهرة البطولة ، وتتمي قدرات الانسان للاحتفاظ بها وتكميل اطرافها ، وتوضيح دلالتها ، ويعد حاتم الطائي من النماذج الشعرية التي التفتت بشكل واضح الى تأكيد صفة الكرم ، وثبتت تقاليد والدفاع عن فلسفته ، ولا نستغرب هذه الحقيقة اذا علمنا ان حاتم يمثل التركيز الصادق لطبيعة مظاهره والفكرة الواعية لابعادها الاجتماعية ، والقدرة المتوعبة ، لما تتركه في النفوس ، وتحمله من خصائص ، ولانها من الصفات التي ظل المجتمع حريصا على تكريمها وملتزميا بادائها . لانها تعبير عن ذاته ، وصورة من صور وجوده ، ورابطة اجتماعية وثيقة من روابطه . وقد اصبح الكرم عند هذا الشاعر خصيصة متميزة خبرها الشاعر خبرة واعية ، وهضمها هضمًا حسيًا ، واستطاع ان يجعله فلسفة يدافع عنها وفق منطق معقول ، ويلتزم بها التزاما

ولا بد ان تتخذ اشكال المقاومة العربية ضد بقايا الاحتلال في الجزيرة اشكالا من الناحضة ، وصورا من الكفاح الذي تجلّى في بعض الايام ، وتمثل في انهاء هذا الاحتلال عندما توجه الشعب من مختلف الاصقاع ، واعدد الجهات والاطراف ، ليلتقي عند ارض العراق ويجعلها ممرا لجيوشه التي كانت تتلطف لاستعادة الارض وتحرير الانسان، وتحقيق اجتماع الشمل بعد ان انفرط باقتطاع تلك الاصقاع .

ان هذا الاعداد القومي والديني الذي تمثّل في الحملة الكبيرة ، والتضحية النادرة والاستشهاد الرائع قد مهد له وبشكل واضح (يوم ذي قار) الذي برزت احدائه بصورة جليلة ، واخذ مجاله من خلال التحرك البشري الواسع في الدعوة الى الوحدة ومجابهة الرفض والتحدي الاجنبي فوق ارض الجزيرة فكان نقطة تحول في تفكير مجرى الاحداث وتوجه قومي حاد نحو قدرة الانتماء ، والتي بدأت القبائل العربية تجد نفسها ملزمة بالدفاع عنها ، والتضحية من اجل استمرار وجودها، واذا حاولنا استجلاء مظاهر الوحدة ، والوقوف عند اشكال النضال الذي عرفته الجزيرة فان الايام التي سبقت (ذي قار) كانت تمهيدا نضاليا ، واستمرارا للمقاومة

الواسع يشكل الصورة الكبيرة التي كانت تتلون زواياها بالاعمال الخالدة ، وتميز يوارقها بالاشراق واللمعان ، وتجلّى روعتها عند الممارسة الفعلية ، لتأخذ حجمها في الضمير العربي ، وجدانا قوميا وصورة انسانية ، وصوتا يستجيب لطبيعة المجتمع وقدرة تحقق اللات ، ولسانا يمتلك كل اسباب التعبير .

ان هذه المحاولة ليست عرضا لشعر الحرب ولا كشفا عن صور البطولة ، او مرورا باعمال الرجال الذين صنعوا الامجاد وحققوا المآثر ، او وقفا عند الشعراء الذين وظفوا شعرهم لتبائة الفرسان وهم يخوضون المعارك او يناجون السلاح او يسجلون البطولات الفذة ، ولكنها محاولة لوضع بعض اللامع للشعر الحربي الذي عبر عنه الشعراء ، وهو يرسم الطموح الشرعي لامال الامة ، والاهداف الكبيرة التي كانت تسعى اليها لتحقيق الاهداف الكبيرة بعد ان تعرضت للتحديات الحاسمة وهي تستهدف وجودها ، فوقفت شامخة وهي تستجلي مثلها ، وتختار النموذج الذي ينطلق حيا في كل نفس ، ومخلصا في كل ضمير ، رائدة في كل مسيرة ليظل صدى رسالتها نبعثا يرفد الشعر العربي بكل ما يقني قدرته ويديم وجوده ويحقق التزامه ..

وغداة قاع القرنين اتيتهم
 رهوا بلوح خلالها التويم
 بكتاب تردي تعود كبشها
 نطح الكباش كأنهن نجوم
 نمضى بها حتى تصيب عدونا
 ونرد منها غانم وكليم

وكان الشعراء يعلمون ان التماسك بين ابناء
 القوم والاعتزاز بما يقدمونه من اعمال يمثل الخطوة
 الاولى التي تضع القبيلة على طريق الانتصار ،
 وتوحد بين الابناء الذين يصنعون المجد التاريخي
 للامة ويحققون السبل التويمة لسيرتها وهذا ما
 كان يدفعهم الى الحديث عن ذلك ، بصدق
 والوقوف عند هذا الجانب بامعان ، وان الاحاسيس
 التي كانت تاورهم وهم يقدمون هذه الاحاديث
 كانت تحمل الوجدان الصادق والحس القومي
 الواضح الذي تمتزج فيه الذات الفردية بالذات
 الجماعية ، وتنتهي في معانيه كل الدلالات التي يمكن
 ان تظفي في المواقف الاخرى ، لان الاحساس
 بالجماعة كان الصورة المطلقة للمجتمع العربي
 والاندفاع وراء تحقيق المستقبل الذي تطمح اليه
 القبيلة في نطاق القوم وهو يرسم الصورة التي ظل

التي تجلت في يوم (السلان) و (الصفقة) و (يوم
 الغرات) و (يوم سفوان) و (ايام الفجار) التي
 كانت تمثل هذه الدعوة ، وتؤكد جانب المجابهة
 الذي عرفته القبائل العربية وهي تعبر عن نفسها
 تجاه المواقف التي حاولت قسوى الاستعباد ان
 تفرضها عليها . وقد استطاع الشعر في كل هذه
 الايام ان يجسد عمق هذا الحس القومي الذي كانت
 تتعالى اصواته من خلال الرقص العربي لكل انواع
 الوصاية ، وفي ابيات لبيد التي يفتخر بايام قومه
 اشارة صريحة لهذا اليوم . ووقفه قومية اصيلة
 لما كان يدور في نفوس ابناء الامة وهم يجابهون
 الخصم ويتصدون لمحاولة الاستيطان حيث
 يقول (١) :

اني امرؤ منعت ارومة عامر
 ضيمي وقد حلفت علي خصوم
 جهدوا العداوة كلها فاصدها
 عني شاكب عزها معلوم
 منها حوي والذهب وقبله
 يوم ببرقة وحرهان كريم

(١) لبيد . الديوان / ١٢٢ .

باسترداد الثروة وشعور بتحشيد القبائل من أجل الدفاع عن هذه الثروة . وتأكيد لمبدأ القدرة على مقاومة الغزاة والتصدي لقوافلهم ، الى جانب كونه نموذجا من نماذج الاحساس بالوحدة والشعور بالترابط عن الملحمة المشتركة والمسير الموحد عندما بدأت القبائل تتجمع وتوحد لتقاتل اقواما غرباء احتلوا الارض ، واستعبدوا الانسان ، واستغلوا الثروة (١) .

لقد ادرك النمل الاجنبي منذ اكثر من الف وخمسمائة سنة ارادة الرقض العربي ، وقد استخدم لايقافه ، والحد منه بعض اتباعه ، وقد حاول هؤلاء الاتباع سلوك مسالك شتى لغرض هذا النمل ، وتثبيت اقدامه ، ولكنه كان يجابه بقوة حازمة ، وعننف متصل وكانت الردود الرافضة تستمد قوتها من قوة الامة ، وعلوا اقبالها وقدرتها على المقاومة ومن هنا كانت اعمال الاتباع الذين استخدموا للحد من هذا التحدي تم بطابع القوة ، وتأخذ شكل الارهاب الدموي في بعض الاحيان ، محارلين بذلك ايقاف المد العربي المتطلع

(١) ينظر العقد الفريد ٢٢٤/٥ والافانتي ٢٢٧/١٧ (دار الثقافة) ومعجم البلدان ٣٨١/١ وابن الاثير ١/٢٧٥/١ وايام العرب للدكتور عادل جاسم البياتي / ٢١٦ ، ٤٢٢ .

الشاعر يدافع عنها في كل موقع ، ويقدم من اجلها التضحيات الجسيمة . وكان صوت ربيعة بن مقروم الذي تحدث عن قومه صورة رائدة في هذا المجال حيث يقول (٢) :

وقومي فان انت كدبتني
بقولي فاسال بقومي عليما
البوا الذين اذا ازممة
الحت على الناس تنفي الحلوما
يبينون في الحق اموالهم
اذا اللزبات التحين الميما
طوال الرماح غداة الصباح
ذور نجدة يمنعون الحرما
بنو الحرب يوما اذا استلاموا
حسبتهم في الحديد القروما

وتأخذ بعض الايام جانبا اخر من جوانب التحدي عندما تتفق القبائل العربية على مهاجمة قافلة كسرى فتأخذ ما كان معها وتقتسمه باعتباره حقا من حقوقها وثررة من ارضها ، وهو احساس

(٢) الملل الصبي . اللطائف ١٨١/١ .

فقطعها وقطع يد رجل كان واقفا بجانبها ، فانفتح الباب ناذا الناس يقتلون ، فشارت بنو تميم وهاجموا الحصن ، وقتلوا الحرس ، وانزلوا بجيش كسرى الهزيمة فقتل من الاساورة من قتل ، وانهمزم ولم يغفر العرب لهوذة بن علي خيانتة بعد ان رشاه كسرى بان وضع التاج على راسه ، فكان يقال له : هوذة التوج ، تمجده الفرس كلما مرت به ، وظل اسمه رمزا من رموز الخيانة ، وصورة من صور الاستسلام ، ونموذجا من نماذج التهاون في القضايا المصرية التي تمس وجود الامة ويرتبط بها مصيرها .

ان مواقف التحدي التي كانت تقفها الامة ، ومواقف الرفض التي كانت ترسم صورة المجد النضالي كانت تتحدد من خلال النصوص المتوفرة وان هذه النصوص كانت تدور في اطار الدعوة الى توحيد القبائل ومساندة المقاومة في كل اشكالها واتخاذ المواقف التي تجسد المؤولية القومية والانسانية ومجابهة القوى التي تحاول السيطرة او الاستحواذ ، وهي مفاهيم كانت تتحدد من خلال المواقف الثابتة التي عبر بها الشعراء عن الحس القومي الذي كان ... ويستثير دوافع التأكيد على القيم التي ترتبط بالبداء ، ولم تكن توقعات

نحو مجابهة الاحتلال ، وايقاف جيروته . وقد تجددت تلك المحاولات في الجزيرة الرهيبة التي دبرتها بعض منائع المحتلين من رجال القبائل المفرر بهم بالتعاون مع كسرى ، فقد حبس كسرى عن القبائل التي اشتركت في استرداد الثروة وهاجمت قافلة الميرة في سنة مجدبة ثم ارسل الى هوذة فاتاه ، فقال : اين هؤلاء فاشغني منهم واشتف وارسل معه الفان الاساورة بقيادة رجل يقال له المكعب (1) فساروا حتى نزلوا المشقر ثم نودي : ان كسرى قد بلغه الذي اصابكم في هذه السنة ، وقد امر لكم بميرة ، فتمالوا فامتاروا . فانصب عليهم الناس ، وكان اعظم من اتاهم بنو سعد ، فجملوا اذا جاءوا الى باب المشقر ادخلوا رجلا رجلا ، حتى يذهب الى المكعب فتضرب عنقه ، وقد وضع سلاحه قبل ان يدخل فاذا مر رجل من بني تميم بينه وبين هوذة اخاء ، او رجل يرجوه ، قال للمكعب : هذا من قومي فيخليه له ، فنظر خيبري بن عبادة الى قومه يدخلون ولا يخرجون ، فقال ويلكم : اين عقولكم ، فوالله ما بعد اللب الا القتل ، وتناول سيفا ، وضرب سلسلة كانت على باب المشقر

(1) كان المكعب عامل كسرى على البحرين ، وسمى بذلك لكبرته الرؤوس ولانه كان يقطع ايدي والادجل .

وتجتاز الاجيال حية تحمل قدرة الوفاء ، لامعة
تشر قيم الاخلاص والتضحية لانها نابعة من ضمير
الامة التي انجبت هذا الشاعر وانجبت غيره من
الشعراء الذين كانت لهم مواقف الصريحة ،
ومادرة عن نوازع القدرة النضالية التي ظلت امالها
تثير في نفوس ابنائها عوامل الاقتدار ، ودوانع
الرفض ، ونزعات التحدي ، وقد حاول هذا
الشاعر ان يفتح هذه القصيدة بالوقوف على اطلال
(عمرة) التي اهاجت له الهموم والاحزان وهو لم
يكن موقفا عفويا اقتضته طبيعة البناء الفني ، او
نرضته لوازم الاداء ، او حقيقته نزعة المخاطبة
الجامدة ، وانما وقوف يمثل الالتصاق الحيوي
بالارض ، والترابط المصري بين الفرد والوطن
المكاني ، والاندماج الاصيل الذي يشد الانسان
بنوطه الذي عاش فوق ارضه وقدم من اجله
التضحيات . ومن الطبيعي ان يتخذ الشاعر من
ذلك مدخلا الى الموضوع الذي كان يأخذ بتلابيب
الشاعر منذ البدايات الاولى بعد ان تجلى حسا
قويا ، واستشارة مصيرية ، ودوانع انسانية ،
فدار عمرة التي وقف عندها هي الارض التي يعتز
بها ، لانها تحمل ذكريات الوجود الاول ، وتحمل
احلام الايام التي شهدت نشأته ونشأة اترابه من

الشعراء بعيدة عن التحليل والتعليل الذي يضع
المسائل موضع التقويم السليم ، وتحديد النتائج
التي تنتهي اليها مواقف الاستسلام الاولى ،
والعواقب الوخيمة التي ستتركها على مستقبل
الامة وقد لمت اسماء مجموعة من شعراء العصر
الذي سبق العصر الاسلامي في سماء الادب العربي
منها جابر بن حني التخلي والمزق العبدى ، والحرث بن
يزيد بن الخداق ، والمزق العبدى ، والحرث بن
ظالم المري ، وطرفة بن العبد وزهير بن ابي سلمى
ولبيد بن ربيعة والثابتة اللبياني ولقيط بن يعمر
الايادي والاعشى ، وهي اسماء تؤكد قاعدة الشعراء
الذين كانوا يخوضون المعركة من خلال ادبهم ،
ويسجلون طموح الامة من ثنايا وفائهم لبدا
التضحية الذي التزموا به ، ويرسمون للاجيال
المستقبل الواضح ، ويحددون معالم الطريق
الانساني وحقها في الحياة ، فقد ظلت قصيدة لقيط
ابن يعمر التي مطلعها :

يا دار عمرة من محلها الجرعا

هاجت لي الهم والاحزان والوجعا

صرخة من صرخات الوفاء ، ورمزا من رموز
التحرير ، وبقيت معانيها الصادقة تعبر القرون ،

وتحذب عليهم ، ويتطلع إليها والحرقة تؤذيه ،
وهو يرتب الصورة التي ستكون عليها بعد أن
تدوسها اقدام الغزاة وتستباح فوق ترابها دماء
الآباء والابناء (١) .

لقد كان صوت الشاعر ايدانا بالاحساس
الذاتي الذي كان يعتمل في النفوس ، ويتعالى في كل
قلب من اجل الحفاظ على وحدة القوم والحرص
على تراب الارض الذي ظل حمى مصوناً .

ابناء قومه لان الانسان الذي حاول ان يتحدث معه
ينقل حسه هو الانسان الذي نذر له نفسه وتحمل
من اجله التضحية الخالدة . وقد ظلت هذه المعاني
هي المحور الذي دارت عليه الابيات ، وكانت صرخة
الهم والحزن والارجاج هي المحة البارزة منذ
البيت الاول على الرغم من التزام الشاعر بالبداية
التقليدية التي حاول من خلالها الربط بين المعنى
والفكرة ، والرغبة والانتماء والاحساس والمؤولية
وقد جسّد الصورة برمز المرأة لانها صورة
الاحساس ، ونموذج الخلود ، وصوت الضمير
الانساني ، وقد اتخذ منها الشاعر جراً ليتحدث
من خلاله الى الراكب - اي راكب - يقطع الجزيرة
على عجل - دون تمهل - ليدرك قومه قبل ان
تصل اليهم طلائع كبرى ليخبرهم بومئته ،
ويبلغهم الامانة التي حرص على نقلها ، وقد حاول
الشاعر ان يؤكد عنصر السرعة من خلال الفاظه
ليبدد موقف المباغتة الذي حاول كسرى ان
يستخدمه لينقض على ابياد وقد تجلت اللامح
الوجدانية والذاتية التي كانت تساءره وهو يتطلع
الى الجزيرة ، الارض التي شهدت ميلاد قومه ،
وعاشت تطلع وجوده وتشهد الان انتشار ابياد
برجالها واطفالها ونساءها ومناعبها وترقب نعمهم ،

(١) نثر القميّة في ديوان لقيط بن يعمر الياضي من
٢٧ - ٥١ . بتحقيق الدكتور خليل العتية .

صدر من الموسوعة الصفيرة

- ١ - العرب والحضارة الاوربية ، د. فيصل السامر .
- ٢ - فلسفة الفيزياء ، د. محمد عبداللطيف مطلب .
- ٣ - الحقيقة الاشتراكية لحزب البعث العربي الاشتراكي
عزيز السيد جاسم .
- ٤ - قضايا المرح المعاصر ، سامي خشبة .
- ٥ - الصناعات البتروكيماوية ومستقبل النفط العربي .
محمد ازهر السمالك .
- ٦ - الثورة والديمقراطية ، صباح سلمان .
- ٧ - دائتي ومصادره العربية والاسلامية ، عبدالطلب صالح .
- ٨ - الطب عند العرب ، د. عبداللطيف البديري .
- ٩ - انغولا .. الثورة وابعادها الاقليمية ، حلمي شعراوي ،
١٠ - مجالات تخطيطية للاهارة التحول الحضري ، د. حيدر
كموننة .
- ١١ - مصادر الطاقة ، د. سلمان رشيد سلمان .
- ١٢ - التراث كمصدر لي نظرية المعرفة وابداع لي الشعر
العربي الحديث ، طراد الكبيسي .
- ١٣ - التقدم العلمي والتكنولوجي ومساهمته الاجتماعية ، د.
نوري جعفر .
- ١٤ - الثقافة والتنظيمات الشعبية ، عبدالقني عبدالفسور .

- ٢٢- الطائفة وآفاقها المستقبلية ، د. عادل كمال جميل .
 ٢٣- فن الترجمة ، ترجمة د. حياة شرارة .
 ٢٥- صورة الكون ، د. محمد عبداللطيف مطلب .
 ٣٦- مدارس النقد الادبي الفرنسي المعاصر . نهاد النكرلي .
 ٣٧- النهضة ، د. كمال مظهر احمد .
 ٣٨- الحرب النفسية ، د. فخري الدباغ .
 ٣٩- الانسان والبيئة ، ترجمة عصام عبداللطيف احمد .
 ٤٠- في علم التراث الشعبي ، لطفي الخوري .
 ٤١- مساهمة العرب في علوم الحياة ، عادل محمد طي
 الشيخ حسن .
 ٤٢- النصرية الصهيونية ، د. عبدالوهاب المسري .
 ٤٣- المصادر الاساسية للفنان التشكيلي المعاصر في العراق ،
 عادل كامل .
 ٤٤- سايكولوجية الطفل في مرحلة الروضة ، منحت عبدالرزاق
 عبدالنبي .
 ٤٥- لمحات موجزة من تاريخ نضال الشعب العراقي ، صادق
 حسن السوداني .
 ٤٦- التكنولوجيا المعاصرة ، د. طه تايه ذياب و د. سامي
 مقلوم صالح .
 ٤٧- نظرية النظم . تاريخ وتطور . د. حاتم الصلبي .
 ٤٨- الطفل هذا الكائن العجيب ، د. ضياء الدين ابو الهب
 ٤٩- في المسرح الشعبي ، عبدالستار جواد .
 ٥٠- الكيمياء عند العرب ، د. جابر الشكري .

- ١٥- العوامل المحفزة لنمو الدخل القومي ، د. كاظم حبيب
 ١٦- فن كتابة الاقصوصة ترجمة : كاظم سعداللهين .
 ١٧- الاعلام والاعلام المصاد ، صاحب حسين .
 ١٨- استثمار المواد الكيماوية والمصنوعة المولدة للبيئة ،
 طارق شكر محمود .
 ١٩- مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية ، د. هاشم
 الطمان .
 ٢٠- الانسان احر المعلومات العلمية عنه ، ترجمة : كاسران
 فرهدالي .
 ٢١- الشعر في المدارس ترجمة : ياسين طه حائلق .
 ٢٢- من عصر البخار الى عصر الليزر ، د. اسامة نعمان .
 ٢٣- الاتصال والتغير الثقافي ، هادي نعمان الهيتي .
 ٢٤- المدخل الى الفكر الفلسفي عند العرب ، د. جعفر آل
 ياسين .
 ٢٥- الصهيونية ليست حركة قومية ، بديعة امين .
 ٢٦- الدفاع المدني الشعبي ، صالح مهدي عمالش .
 ٢٧- النسبية من نيوتن الى انشتاين ، د. طالب ناهي الطلاجي
 ٢٨- فن التمثيل عند العرب ، د. محمد حسين الاعرجي .
 ٢٩- الموسيقى الالكترونية ، د. طي الشولا .
 ٣٠- دراسة في التخطيط الاقتصادي ، د. يحيى فني النجار .
 ٣١- الرواية العربية والحضارة الاوربية ، شجاع مسلم العاني .
 ٣٢- نقد الفكر البرجوازي المعاصر ، ترجمة : يوسف عبدالسبح
 ثروة .

- ٧٠- العلاج النفسي ، أنواعه ، أساليبه ، مدارسه .
د. فخري الدباغ .
- ٧١- ملامح من الشعر القصصي في الأدب العربي . د. نوري حمودي القيسي .
- ٧٢- تاريخية المعرفة منذ الإغريق حتى ابن رشد .
- ٧٣- التزامن بين الحروب الصليبية والف ليلة وليلة لعبدالقنى السلاج .
- ٧٤- الدماغ البشري . د. طارق إبراهيم حمدي .
- ٧٥- آراء في الكتابة والعمل الصحفي . وآل العاني .
- ٧٦- تيارات حديثة في الأدب الألماني . د. مصطفى عبدالحميد
- ٧٧- هنا بُدأ التاريخ . تاليف س. ن. كزيمير ، ترجمة :
ناجية مراني .
- ٧٨- ظهور الرواية الانجليزية . ترجمة د. يوتيل يوسف عزيز .
- ٧٩- انصواء على حركة الشباب في القطر العراقي ، شامل عبدالقادر .
- ٨٠- المعجم العربي . د. حسين نصار .
- ٨١- بين القادسية الاولى والحانسية صدام حسين . مهدي حسين البصري .
- ٨٢- ادارة الانتاجية . تاليف : جي. اي. فارادي ، ترجمة :
ابراهيم عبدالله جرجيس . سلمان يعقوب العبيدي .
- ٨٣- الانسان في ادب وادي الرافدين . د. يوسف حبي .
- ٨٤- الثورة والسياسة الدولية . جمال عبدالرزاق الصبيدي .
- ٨٥- تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي .
د. عبدالجبار ناجي .
- ٨٦- اثر البيئية في الحكاية الشعبية العراقية .
د. عمر الطالب .

- ٨٥- نزعات انسانية في موسيقى بتهوفن ، هانم الدباغ .
- ٨٥٢- نظرات في علم الرواية ، د. عبدالاله صفاق .
- ٨٥٣- مقدمة في تاريخ العربية ، د. ابراهيم السمرالي .
- ٨٥٤- الاسطورة ، د. نبيلة ابراهيم .
- ٨٥٥- برج بابل ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا .
- ٨٥٦- التاريخ الاقتصادي للشرق الاوسط ، ترجمة ولعرب
عادل ابراهيم يعقوب .
- ٨٥٧- الرواية والكتان ، ياسين النصر .
- ٨٥٨- التخطيط المعاصر للمدن ، د. باسم رؤوف .
- ٨٥٩- هذا هو الفارابي ، منفي صالح .
- ٨٦٠- اعلام لى النحو العربي ، د. مهدي المخزومي .
- ٨٦١- حفارة الرقم الطينية وسياسة التربية والتعليم في
العراق القديم ، ترجمة : يوسف عبدالصالح لروة .
- ٨٦٢- نظرات جديدة لى مستقبل العمل الالاهى - سعد اليزال .
- ٨٦٣- لى صحة المجتمع . د. عبدالرحمن بيرم .
- ٨٦٤- الرياضيات عند العرب . د. احمد نصيف الجنابي .
- ٨٦٥- الابعاد القومية لثورة مايس ١٩٤١ لى العراق . د. محمد
مظفر الادهمي .
- ٨٦٦- جدلية ابي تمام . د. عبدالكريم اليافي .
- ٨٦٧- المدخل لتاريخ العمارة العباسية وتطورها . شريف يوسف
- ٨٦٨- القلب البيطري عند العرب . د. طه حامد الشيبب .
- ٨٦٩- جماليات الفنون . د. كمال العيد .

Little Encyclopedia

A Fortnightly Cultural
Series dealing with various
branches of Science, Art,
and Literature

Issued by Dar — Al-Jahidh
Al-Khulafā Street — Baghdad

Editor-in-Chief
Musa Kraidi

المحتويات

- ١ - تمهيد ٢
٢ - شعر الحرب عند العرب .. ٧

رقم الايداع في المكتبة الوطنية - بغداد
رقم (١٦٣) لسنة ١٩٨١

دار الحرية للطباعة | بغداد

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م